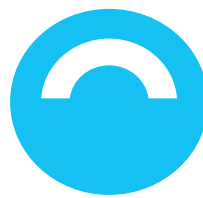


الأسماء



اللغة العربية

الصف 2 الثانوى

قصة «وَأِيسْلَامَاه»

2023 - 2024

الفهرس

٣	أهم أشخاص القصة
٥	أهم المدن التي وردت بالقصة في الفصل الدراسي الأول
٧	خط سير الأحداث
٨	الفصل الأول: حوار بين السلطان «جلال الدين» وابن عمه الأمير (ممدود)
١١	الفصل الثاني: «جلال الدين» يصارع التتار
١٦	الفصل الثالث: نجاة «محمود» و«جهاد» من التتار ولقاؤهما السلطان
١٩	الفصل الرابع: نهاية السلطان جلال الدين
٢٦	الفصل الخامس: اختطاف الطفلين: «محمود» و«جهاد»
٣١	الفصل السادس: «محمود» و«جهاد» في سوق الرقيق!
٣٦	الفصل السابع: حياة سعيدة.. وفراق حزين
٤٤	الفصل الثامن: لقاء «قطز» بـ«ابن الزعيم» وبالشيخ «العزبن عبدالسلام»

أهم أشخاص القصة

- جلال الدين**
حارب التتار وانتصر عليهم ثم هُزم وأقام مملكة صغيرة في لاهور وقتل بيد كردى موتور.
- ◀ **خوارزم شاه**
 - ◀ **«والد»** جلال الدين، تحرش بالتتار وقتلهم لتوسيع مملكته ونشر الإسلام، فمات شهيدًا.
 - ◀ **الأمير ممدود**
 - ◀ **«ابن عمه»** وزوج أخته، وأبو محمود الذى أصبح السلطان سيف الدين «قطز».
 - ◀ **تركان خاتون**
 - ◀ **«جدته»** أم خوارزم شاه، قبض عليها التتار وأرسلوها وأهل السلطان إلى جنكيز خان عندما كانوا فى طريقهم إلى «غزنة».
 - ◀ **جهان خاتون**
 - ◀ **«أخته»** وزوجة الأمير ممدود، وأم «محمود».
 - ◀ **عائشة خاتون**
 - ◀ **«زوجته»**، وأم «جهاد».
 - ◀ **جهاد «جلنار»**
 - ◀ **«ابنته»**، وحببية «قطز» تربت معه واختطفته معه وبيعت فى سوق الرقيق، وصاحبة قول «وإسلامه» الذى أشعل حماس الجيش فى «عين جالوت» واستشهدت.
 - ◀ **سيف الدين بغراق**
 - ◀ **«أعظم قواده»**، هزم جيش الانتقام التتارى، وغضب عند اختلاف المسلمين على اقتسام الغنائم، فانفرد بثلاثين ألفًا من خيرة جنوده مما أضعف شأن المسلمين.
 - ◀ **جنكيز خان**
 - ◀ **«عدوه»** قائد جيوش التتار التى اجتاحت الشرق الإسلامى، وكان سببًا فى هزيمة «جلال الدين».
 - ◀ **الأمير بهلوان أزيك**
 - ◀ **«نائبه»** على مملكته بالهند حين اتجه «جلال الدين» لمحاربة التتار.
 - ◀ **الكردى الموتور**
 - ◀ **«قاتله»**، اختطف مع أفراد آخرين «جهاد ومحمودًا» وباعوهما لتاجر رقيق، وقتل «جلال الدين» بجبل الشطار.
 - ◀ **الشيخ سلامة الهندى**
 - ◀ **«خادمه»** وحارس «محمود» و«جهاد»، هرب بهما من التتار إلى قريته بالهند، واختطف معهما، واشترى تاجر الرقيق محمودًا وجهاد، ولم يرغب فيه فمات حزنًا.
 - ◀ **السائس سيرون**
 - ◀ **«سائسه»**، اختطف مع محمود وجهاد، وقتله المختطفون عند محاولته الهرب بالطفلين.

◀ «رفيقه بسوق الرقيق»، أصبح من أمراء المماليك وتعاون مع قطز في صد التتار، كان شرساً في طباعه، قوى الشكيمة يسعى إلى السلطة فقتل صديقه «قطز» ظناً منه أنه يحسده على بطولاته ولكنه ندم عند علمه بنية قطز في توليته ملك مصر.

الظاهر بيبرس

◀ «مولاه الأول» تاجر دمشقى من الأعيان، صالح، كان يعامل محموداً وجهاد معاملة طيبة ووعدهما بأن يعتقهما ويزوجهما ولكنه مات فترك وصية لابنه لينفذ هذا الوعد.

الشيخ غانم المقدسى

◀ «ابن مولاه»، لم ينفذ وصية أبيه وعمل على التفريق بين قطز وجلنار وكان كثير اللهو والفسوق، عاصياً لوالديه.

موسى بن غانم المقدسى

◀ «صديقه بدمشق» وهو خادم «ابن الزعيم» وكان رجلاً صالحاً خفف من أحزان «قطز» وأنقذه من تعذيب «موسى» له فجعل «ابن الزعيم» يشتريه منه، واكتشف حقيقة قطز بفراسسته قبل أن يعترف بها له.

الحاج على الفراش

سيف الدين قطز (محمود)

بطل القصة، لازم خاله (جلال الدين) في حروبه صغيراً وبيع في سوق الرقيق.

◀ «مولاه الثانى بدمشق» من أثرياء دمشق، كان يعمل لخدمة الدين والوطن، ويشارك الشيخ العزبن عبد السلام فى تطهير البلاد من التتار والصليبيين، أكرم قطز وأوصى خادمه أن يتعهده بالرعاية، ثم باعه «للصالح أيوب» فى مصر ليكون ضمن مماليكه.

ابن الزعيم

◀ «شيخه» من أعظم شيوخ عصره، كان له نفوذ سياسى ودينى كبير، وقد ساعد «قطز» فى جمع الأموال لحرب التتار، وأثر فى شخصيته تأثيراً واضحاً، وله فتاوى جريئة.

الشيخ العزبن عبد السلام

◀ «حاكم مصر»، أقوى ملوك المسلمين لا يميل إلى موالاة الصليبيين، وكان يناصره ويؤيده الشيخ العزبن عبد السلام.

نجم الدين أيوب

◀ «حاكم دمشق»، كان خائناً للإسلام، تعاون مع الصليبيين فى حربه ضد «نجم الدين».

الصالح إسماعيل

◀ «حاكم الكرك».

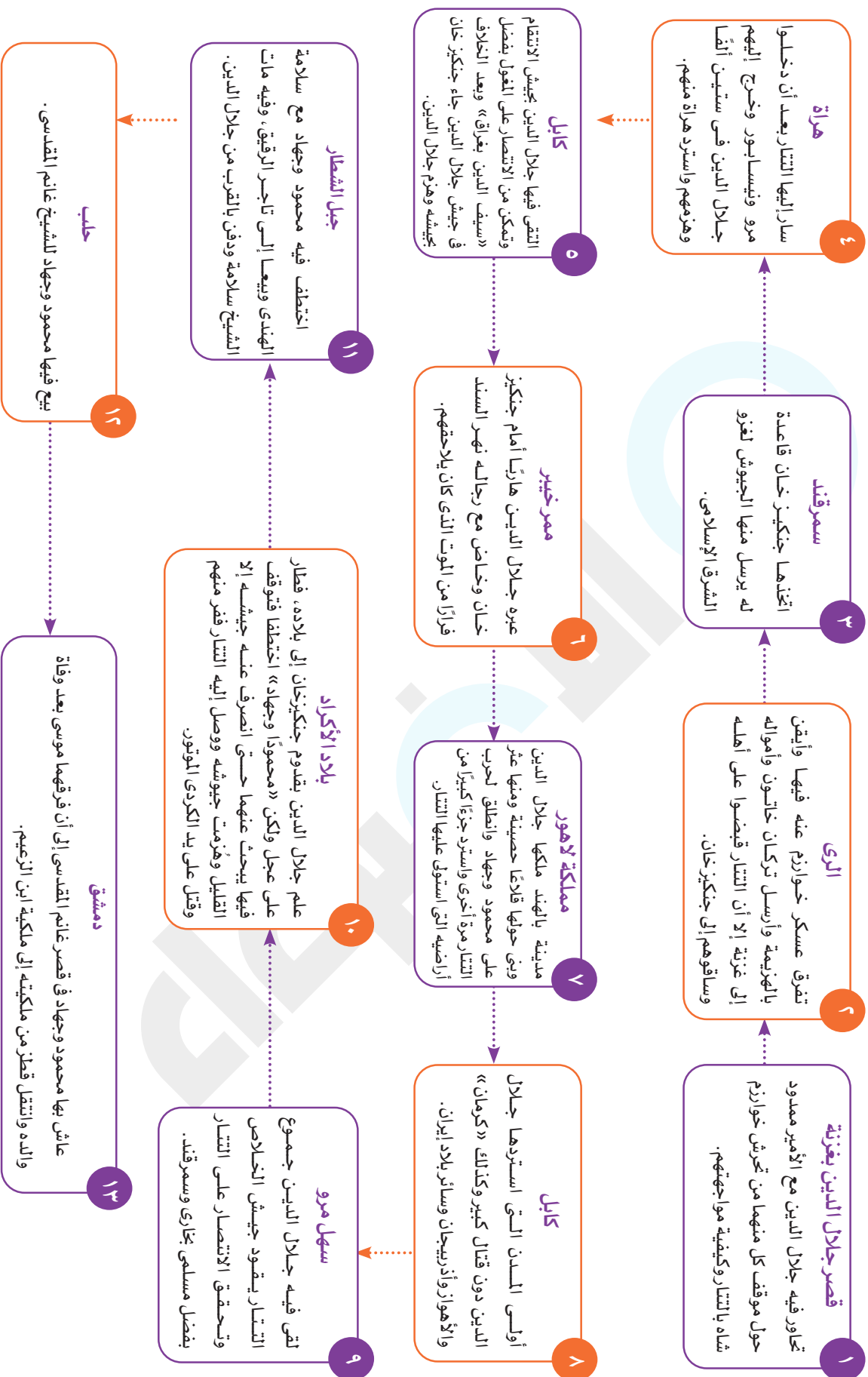
الملك الناصر داود

أهم المدن التي وردت بالقصة في الفصل الدراسي الأول

عاصمة جلال الدين، بها قصره الذي كان يتحاور فيه جلال الدين مع ابن عمه الأمير ممدود حول موقفهما من تحرش خوارزم شاه بالتتار وكيفية مواجهة التتار.	١ غزنة
مدينة تفرق فيها عسكر خوارزم شاه عنه، وأيقن بالهزيمة فأرسل نسوة من أهله إلى غزنة مع أمواله وذخائره ليلحقن بجلال الدين إلا أن التتار قبضوا عليهم بما يحملن وساقوهن إلى جنكيز خان.	٢ الري
مدينة اتخذها جنكيز خان قاعدة لجيوشه، وكان ينطلق منها للهجوم على الشرق الإسلامي.	٣ سمرقند
مدن دخلها التتار، ودانت لهم.	٤ خراسان وهمدان وبخارى ومرو
مدينة دخلها التتار، فاضطر جلال الدين للمسير إليهم بستين ألفًا من الجنود وهزمهم وأجلاهم عنها، وفيها أصيب الأمير ممدود إصابة بالغة أدت إلى وفاته.	٥ هراة
قاعدة جديدة اتخذها جنكيز خان بعد سمرقند، طارد جلال الدين التتار حتى حدودها.	٦ الطالقان
مدينة أرسل إليها جنكيز خان جيش الانتقام وحاربهم عندها جلال الدين وانتصر عليهم بفضل سيف الدين بغراق، ووقع الخلاف بين القادة وانسحب سيف الدين بغراق، وهاجم جنكيز خان جلال الدين بعد أن ضعف جيشه وانتصر عليه، وقد عاد إليها جلال الدين بعد فراره إلى الهند واستردها من التتار.	٧ كابل
عبره جلال الدين مع سبعة آلاف من خاصة رجاله ولحقته طلائع التتار هناك، فخاض نهر السند بعد أن غرق نسوة أهل بيته.	٨ ممرخيبر
عاصمة المملكة الجديدة التي أقامها جلال الدين بعد أن فر من التتار واستطاع أن يجعلها قلعة حصينة يهجم منها على التتار وينتصر عليهم ويسترد الأراضي التي استولوا عليها.	٩ لاهور
بلاد استردها جلال الدين من التتار.	١٠ كرمان والأهواز وأذربيجان
دانت لجلال الدين بعد عودته من الهند.	١١ بلاد إيران
بنى فيها جلال الدين قبرًا عظيمًا لوالده ونقل إليه رفاتة.	١٢ قلعة أزدهن

دارت فيه معركة بين جلال الدين والتتاروياد فيها معظم جيش الخلاص الخاص بجلال الدين وكاد أن يهزم لولا أن أدركه أهل بخارى وسمرقند وهاجموا التتار من خلفهم حتى اختلت صفوفهم وتحقق النصر.	١٣ سهل مرو
اختطف فيها محمود وجهاد والشيخ سلامة الهندي، كما قتل فيها السائس سيرون، وقُتل فيها جلال الدين على يد الكردي الموتور.	١٤ بلاد الأكراد
مدينة وصلها جنكيزخان وقاتل فيها المسلمين من أهل بخارى وسمرقند الذين انتصروا في بداية الأمر ولكن إمدادات التتار أعجزتهم وانتصرت عليهم.	١٥ تبريز
قلعة منع جلال الدين من دخولها بعد أن أحرق به التتار عندها وهرب منهم.	١٦ آمد
مدينة دخلها جلال الدين؛ ليحتمي بملكها ولكن التتار لحقوا به فغادرها إلى جبل الأكراد حيث قتله الكردي الموتور هناك.	١٧ مياً فارقين
إحدى مدن الأكراد، اختطف سبعة منها «محموداً وجهاد» وباعوهما لتاجر الرقيق.	١٨ خلاط
جبل أقام به محمود وجهاد بضعة أيام وبيعا إلى أحد تجار الرقيق، وفيه مات الشيخ سلامة الهندي ودفن فيه قريباً من جلال الدين.	١٩ جبل الشطار «الأكراد»
مدينتان سوريتان، بيع محمود وجهاد في حلب وعاشا مع الشيخ غانم المقدسي بقصره في درب القصاعين بدمشق.	٢٠ حلب ودمشق

خط سير الأحداث





حوار بين السلطان «جلال الدين» وابن عمه الأمير «ممدود»

الفصل الأول

عرض الأحداث

١ موقف جلال الدين وممدود من تحرش خوارزم شاه بالتتار:

قال السلطان (جلال الدين) ذات ليلة (للامير ممدود) ابن عمه وزوج أخته، وكان يلعبه الشطرنج في قصره (بغزنة): «غفر الله لأبي وسامحه! ما كان أغناه عن التحرش^(١) بهذه القبائل التتارية المتوحشة، إذن لبقيت تائهة في جبال الصين وقفارها، وظلّ بيننا وبينهم سد منيع».

قال (ممدود): حسبه أنه جاد^(٢) بنفسه في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام؛ فقد ظلّ يقاتلهم ويجالدهم^(٣) جلاذ لا هوادة فيه، إلى أن كبا به^(٤) الحظ، فمات شريداً وحيداً في جزيرة نائية.

ليت الأمر ينتهي عند جوده بنفسه، إذن لبكينا ملكاً عظيماً عز علينا فراقه، واخسبنا^(٥) عند الله والداً كريماً المأ فقده، ولكن لتصرفه هذا ذيولاً لا أحسبها تنتهي؛ فهؤلاء التتار رسل الدمار والخراب، وطلائع الفساد، لا يدخلون مدينة حتى يد مروها ويأتوا فيها على الأخضر واليابس، ولا يتمكّنون من أمة حتى يقتلوا رجالها، ويدبحوا أطفالها، ويبقروا بطون حواملها، ويهتكوا أعراض نسائها!!

٢ البكاء على أسر التتار لأم خوارزم شاه وأخواته:

وهنا طعى البكاء على (جلال الدين)، وعاقه برهة عن الاستمرار في كلامه، ففهم (ممدود) ما جال بخاطره، ولم يلبث أن شاركه في البكاء فانخرط^(٦) فيه. وما كان بكاؤهما لأمرهين، فقد تذاكرا ما وقع لنسوة من أهلها، فيهن أم (خوارزم شاه) وأخواته، فقد بعثهن (خوارزم شاه) من (الري)، حين تفرق عنه عسكره وأيقن بالهزيمة، ليلحقن (بجلال الدين) في (غزنة)، وبعث معهن أمواله وذخائره التي لم يسمع بمثلها.

فاتصل ذلك بعلم التتار؛ فتعقبوهن وقبضوا عليهن في الطريق، فأرسلوهن مع الذخائر والأموال إلى (جنكيز خان) (بسمرقند). ومسح (جلال الدين) دموعه وطفق يقول: «أواه^(٧) يا (ممدود)! ليس في الدنيا مصيبة أعظم من مصيبتنا. أبعد العز الرفيع، والحجاب المنيع، تساق والدّة (خوارزم شاه) وأخواته إلى طاغية التتار؟! كل فاجعة في الحياة تهون إلا هذه، أية لذّة تبقى في العيش بعد (تركان خاتون^(٨))؟ ليت شعري ما حالهن هناك؟! كيف يعشن بين أولئك الوحوش؟! أولئك الوحوش؟!»

(٧) أواه: اسم فعل بمعنى: أتوجع.

(٤) كبا به: تعثر. المضاد: وفق.

(١) التحرش: التعرض. المضاد: البعد.

(٨) خاتون: الشريفة، أما (تركان) فهو اسم امرأة.

(٥) اخسبنا: ادخرنا أجره.

(٢) جاد به: ضجى به. المضاد: بجل به.

(٦) انخرط: تماديا في البكاء. واشتدا. المضاد: توقفا.

(٣) يجالدهم: يضاربههم ويحاربهم.

يا ليت أبى قتلَهَنَّ بيده، أو وأدَهَنَّ فى التُّرابِ، أو ألقاهنَّ فى اليمِّ، خيرًا من أن يَقَعَنَّ سبائا فى أيدي القوم، ويلقيَنَّ الذُّلَّ والهوانَ عندهم، وما أشكُّ فى أنه ماتَ فى الجزيرةِ غمًّا حين بلغه أمرُهَنَّ.»

- الله لهُنَّ يا مولاى! لعلَّ الله يَسْتَنْقِذُهِنَّ مِنْ أَيْدِيهِمْ بِسَيْفِكَ وَسُيُوفِنَا مَعَكَ.

٣ التَّارِيَسْتَدُّ نُفُودُهُمْ (وممدود) يُحْرِضُ (جلال الدين) على مُهاجَمَتِهِمْ:

- هَيْهَاتَ يا ممدود! أَبَعَدَ أَنْ دَانَتْ (٩) لَهُمْ (خُرَّاسَانَ) كُلَّهَا، وَدَخَلُوا (الرَّيَّ)، وَمَلَكَوا (هَمَدَانَ)، نَطْمَعُ فى أن نغلبَهُمْ بسِيفِنَا ونُجْلِيَهُمْ عن بلادِنَا؟! لقد كان لوالدى عشرون ألفًا من الفُرسانِ فى (بُخارى)، وخمسون ألفًا فى «سَمَرْقند» وأضعافُها معه، فما أَغْنَتْ تلكَ الجحافلُ الجرارةُ عنه شيئًا، وهو مَنْ هو فى شجاعِيتهِ وبأسِهِ، ونفوذِهِ وصرامَتِهِ، فما ظنُّكَ بى وأنا دُونَهُ فى كُلِّ شَيْءٍ، وَقَدْ قَوَى التَّارُوعَظَمَ سُلْطَانُهُمْ فى البلادِ!؟

- إنك ابنُ (خوارزم شاه) وَوَارِثُ مَلِكِهِ وَخَلِيفَتُهُ على بلادِهِ وما يكونُ لَكَ أن تَيْتَسَّ من هزيمةِ عدوِّهِ، وَطَرِدَهُ من بلادِ رعاياه. ولقد كانتِ الحربُ بينَ أبِيكَ وبينَ هؤلاءِ سِجَالًا (١٠)؛ فَتارَةً يهزُمُهُمْ، وتارةً يهزُمُونَهُ؛ حتى نَفَذَ القِضَاءُ فِيهِ لِأَمْرِ طَواهُ اللهُ فى عِلْمِهِ؛ فماتَ شهيدًا فى جزيرةِ نائيَّةٍ؛ وَلَكِنْ لم يَمُتْ سِرُّهُ فهو حَيٌّ فىكَ. وَمَنْ يَدْرِى؟ لعلَّ الله يَنْصُرُ بِكَ الإِسْلامَ والمسلمينَ، ويجعلُ نهايةَ الأعداءِ على يَدَيْكَ.

٤ (جلال الدين) يَتَّهَمُ مُلُوكَ المُسلمينَ بالتَّقصيرِ ويفكرُ فى تحصينِ بلادِهِ فقط:

- إنَّ خَليفةَ المُسلمينَ، وملوكَهُمْ وأمراءَهُمْ فى (بغدادَ ومصرَ والشامَ) يَعْلَمُونَ بما حصلَ ببلادِنَا من نكبةِ التَّارِ، وقد اسْتَنجَدَ بِهِمْ أبى مرارًا فلم يُنْجِدُوهُ ولم يُصْغُوا لندائِهِ، فَدَعَهُمْ يَذُوقُوا مِنْ وَبَالِهِمْ (١١) ما ذُقْنَا.

- وَحَسْبى أنى سَأَحْصِنُ حُدُودَ بلادِي وَأَمْنَعُها مِنْهُم، وأدفعُ شرَّهُم عنها فلا أدعُهُم يخلصونَ إليها.

- إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ حِمايةَ بلادِكَ مِنْهُم إذا عَزَّوْكَ فى عَقْرِها (١٢) ما لم تَمَسَّ إِلَيْهِمْ فَتَلْقَهُمْ دُونِها بِمئاتِ الفِراسِخِ (١٣)؛ فإنَّ أَظْهَرَكَ (١٤) اللهُ عَلَيْهِمْ فَذَاكَ، وإن تَكُنْ الأخرى كانَ لَكَ من بلادِكَ ظَهْرٌ تَسْتَنِدُ إِلَيْهِ وَتَسْتَعِذُّ فِيهِ. وبعد، فإنَّ (جنكيز خان) لَنْ يَتَوَجَّهَ إلى العَرَبِ حتى يَفْرَغَ من الشَّرِّ، ولن يَمَسَّ العِراقَ والشامَ حتى يَقْضَى على مَمالِكِ (خوارزم شاه) أَجمَعِها.

٥ الاتفاقُ على الاستعدادِ لِحَرْبِ ومهاجَمَةِ التَّارِ فى عَقْرِ ديارِهِمْ:

فأَطْرَقَ (جلال الدين) هُنَيْهَةً (١٥)، وَطَفِقَ يَفْرُكُ جَبِينَهُ بيده وكأنه يُدِيرُ فى رأسِهِ مُوازِنَةً بَيْنَ رَأْيِهِ ورأى ابنِ عمِّهِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: «لا حَرَمَنى اللهُ صائِبَ رَأْيِكَ يا (ممدود)، فَمَا زِلْتُ تُحاجُّنِي حتى حَجَجْتَنِي، وهانِذا مُقْتَنِعٌ بِسَدادِ رَأْيِكَ، وَماضٍ لِمَا تُشيرُ بِهِ عَلى، وَحَسْبى أنكَ ستَكُونُ يَدِي اليُمْنَى فِيمَا أَنهَضُ بِهِ مِنَ الأَمْرِ».

(٩) دانته: خضعت. المضاد: استعصت. (١٠) سجالًا: متداولة. (١١) وبالهم: فسادهم. (١٢) عقرها: وسطها. (١٣) الفراسخ: المبرد: فرسخ، وهو يساوى خمسة كيلو مترات. (١٤) أظهرك: نصرك. (١٥) هنيهة: تصغير هنة: زمن قصير.

- سأكون يابن عمي ويا مولاي أطوع لك من خاتم في يدك، وسأقاتل حتى أقتل دونك.
 - إنك لم تدع لي في قتال هؤلاء غدرًا يا (ممدود)، رحم الله أبي، قد وزّنتي ملغًا لا يُعْبَطُ صاحبُه عليه، وحَمَلَنِي عَبْنًا ثَقِيلاً.
 - سيكون لك من معونة الله وتوفيقيهِ، إذا أخلصت الجهاد في سبيله، ما يشرح لك صدرك، ويضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك، ويرفع لك بهزيمة التتار، عند الله وعند الناس ذكرك.
 فتبسم (جلال الدين)، وتهللت أساريه^(١٦) من البشر، وقال: «بشرك الله بالخير يا (ممدود). إن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝١٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾^(*).
 ثم رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إنني أرغب إليك، فوفّقني لما تحبّه وترضاه».

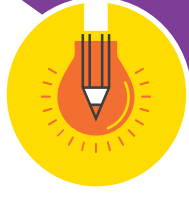
٦ جلال الدين يسأل عن حال أخته (جهان خاتون):

وتذكر (جلال الدين) أخته (جهان خاتون)، فسأل زوجها عن حالها فإنه لم يرها منذ أيام، فأجابته (ممدود): «هي في رعاية الله ورعايتك بخير، وما منعها من المجيء إليك إلا ثقل الحمل».
 - أجل.. لطف الله بها وبزوجتي (عائشة خاتون)، فإنهما في شهرهما التاسع، فبلغها تحيتي، وعسى أن أتمكن من زيارتكم غداً إن شاء الله.

(*) سورة الشرح: (٥ - ٨).

(١٦) تهللت أساريه: أشرق وجهه.

(١٧) انصب: اتعب واعمل بكل جهدك.



عرض الأحداث

١ استِعْداد (جلال الدين) لحرب التتار:

طَلَّقَ (جَلالُ الدِّين) ما كانَ فيه مِنَ الدَّعَةِ^(١) والراحةَ منذُ تلكَ الليلةِ التي عَاهَدَ فيها نَفْسَهُ على المَسيرِ لِقِتالِ التتارِ، وَقَضَى قِرابَةَ شهرٍ وهو يَجْتَهِدُ في تَجهيزِ الجِيشِ وإعدادِ العُدَدِ وتقويةِ القِلاعِ في مُدُنِ بلادِهِ، وبناءِ الحُصُونِ على طُولِ حَظِّ السَّيرِ، يُعاوَنُهُ في ذَلِكَ صِهرُهُ (ممدودٌ) حتى إذا تَمَّ له مِنْ ذَلِكَ ما أَرادَ، عَيَّنَ يَوْمَ المَسيرِ.

٢ خُرُوجُ (جلال الدين) لِمِلاقاةِ التتارِ وهزيمَتِهِم:

وَجاءتِ الأَنْباءُ بأنَّ التتارَ دَخَلوا (مَرُوزَ)، وسارُوا إلى (نَيْسابور) فوَضَعُوا في أَهلِها السيفَ ومَلَكُوها، وأنَّهم سائِرُونَ إلى (هَرَاةَ). فلم يَبقَ لَدَي (جلالِ الدين) مِجالٌ لِلانْتِظارِ فأذِنَ لِعَساکِرِهِ بالمَسيرِ، وخرَجَ في سَتينَ أَلْفًا يَحْتُبُّ بِهِم السَّيرَ حتى لَقِيَ طلائِعَ التتارِ دُونَ (هَرَاةَ) وكانوا قَد حاصَرُوها عَشْرَةَ أَيامَ، ثُمَّ مَلَكُوها وأَمَنُوا أَهلَها وتقدَّموا يَبْتَغُونَ (عَزَنَةَ)، فَقاتَلَهُم (جلالُ الدين) قِتالًا عَظِيمًا حتى هَزَمَهُم، وَقَتَلَ مِنْهُم خَلقًا كَثيرًا.

وَبعثَ رُسُلًا تَسَلَّلُوا إلى (هَرَاةَ) فأخبروا أَهلَها بما وَقَعَ مِنْ انكِسارِ التتارِ، ففرَحَ النَّاسُ فرحًا عَظيمًا، وأخذوا يَتَنادَوْنَ بأنَّ (خوارزم شاه) قد بعَثَهُ اللهُ حَيًّا مِنْ قِبرِهِ لِيُطَهِّرَ البلادَ مِنَ التتارِ، ووَثَبُوا على حاميَتِهِم بِالْمَدِينَةِ، فلمَّا عادتِ فلُولُ التتارِ إلى (هَرَاةَ)، وَعَلِمُوا ما وَقَعَ مِنْ أَهلِها انتقمُوا مِنْهُم فقتلوا كَلَّ مِنْ وجَدِوهُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ والأطفالِ، وخرَبُوا المَدِينَةَ، ونهبُوا السَّوادَ^(٢)، وأتلفوا كُلَّ ما لَمْ يَقدرُوا على حَمِلِهِ مِنَ الأموالِ.

وطارَدَهُم (جلالُ الدين) فأجلاهم عن (هَرَاةَ)، ثم ما زال يَتعقبُهُم حتى أوصلَهُم إلى حُدودِ (الطالقان)، حيثُ اتَّخَذَها (جنكيزخان) قاعِدَةً جَديدةً لَهُ بعدَ (سمرقند)، يُرْسِلُ مِنْها بُعوثَهُ وسَرايَها، ثُمَّ رَأى (جَلالُ الدِّين) أنَّ يَكْتَفِي في هَذِهِ الغزوةِ بما أُخْرِزَهُ مِنَ الانتصاراتِ عليهم، وألا يُهاجِمَهُم في قاعِدَتِهِم الجَديدةِ حتى يَسْتَجِمَّ وَيُريحَ جُيوشَهُ مِنَ نَصَبِ القِتالِ، ويُعَدُّ جُيوشًا أُخرى وَيستعدُّ استعدادًا جَديدًا لِمِلاقاةِ أعدائِهِ، فعادَ بِبُهْرَةٍ^(٣) جيشَهُ إلى (عَزَنَةَ) بعدَ أن تَرَكَ حاميَاتٍ قَويَةً في البلادِ التي طَرَدَ مِنْها التتارَ.

٣ بُطُولاتُ (الأمير ممدود) في الحربِ واسْتِشْهادُهُ وأثرُ ذلكَ على (جلال الدين):

وكانَ يَوْمَ قُفُولِهِ^(٤) إلى (عَزَنَةَ) يَوْمًا مَشهودًا، احتفلَ بِهِ أَهلُها احتفالًا رانِعًا، لَمْ يَغُصَّ^(٥) مِنْ جَمالِهِ إلا رَجوعُ الأميرِ ممدودٍ جَريحًا مَحْمولًا على مِحْفَةٍ، بعدَ ما أبلى بلاءً حَسَنًا في قِتالِ التتارِ، وأبَدَى أروَعَ آياتِ البُطولَةِ، وركِبَ أَعْظَمَ الأخطارِ.

(٤) قُفُولُهُ: رجوعه.

(٥) يغص: ينقص ويقلل.

(١) الدعّة: السكون والاستقرار.

(٢) السَّواد: القرى.

(٣) بُهْرَة: خيرة.

حزن (جلال الدين) لما أصاب صهره الفارس الشجاع، واهتم بعلاجه اهتمامًا كبيرًا، وابتغى له أحسن أطباء زمانه، وأغدق عليهم الأموال، ووعدهم بمكافآت كبيرة إذا وُفقوا لشفائه، ولكن جراحه كانت بالغة، فلم تُجد مهارة الأطباء، وأخذت حالته تسوء يومًا بعد يوم، وكان (جلال الدين) لا يغب (٦) زيارته، فهو يتردد عليه صباح مساء.

ولما ثقلت عليه العلة وأيقن بدنو الموت، بعث إلى (جلال الدين) أن يحضر، فلما حضر قال له بصوت متقطع وهو يحضن زوجته وابنها الرضيع: «يا بن عمي: هذه أختك (جهان خاتون)، وهذا ابنك محمود، فأولهما عطفك، ورعايتك وأذكرني بخير».

فبكى (جلال الدين)، وأجهشت (٧) أخته بالبكاء. وكان (ممدود) ينظر إليهما وإلى الطفل الرضيع نظرات تائهة. ولم يلبث أن لفظ روحه وهو يُردد الشهادتين.

مات الأمير (ممدود) شهيدًا في سبيل الله ولم يتجاوز الثلاثين من عمره، تاركًا وراءه زوجته البارّة، وصبيًا في المهدي لما يدُر عليه الحول ولم يتمتع برويته إلا أيامًا قلائل، إذ شغله عنه خروجه مع (جلال الدين) لجهاد التتار، ولم يكن له - وهو يُودع هذه الحياة ونعيمها - من عزاء عنهما إلا رجأؤه فيما أعد الله للشهداء المجاهدين في سبيله من النعيم المقيم والرضوان الأكبر.

وفت موته في عضد (٨) (جلال الدين)، إذ فقد زكنا من أركان دولته، وأخا كان يعتز به ويثق بإخلاصه ونصحه، ووزيرًا كان يعتمد على كفايته، وبطلًا مغوارًا كان يستند إلى شجاعته في حروب أعدائه. فبكاه أحر البكاء، وحفظ له جميل صنعه وحسن بلائه معه، فرعاه في أهله وولده، وضمهما إلى كنفه، وبسط لهما جناح رأفته، واعتبر (محمودًا) كابنه يُحبه ويدلله ولا يصبر عن رؤيته، وكثيرًا ما يجتذبه من يدى والدته فيحمله إلى صدره، فربما بال الصبي على ثيابه فلا يزيد إلا حبًا وتعلقًا به، وكان حين يرجع من قتال التتار يسأل أول ما يسأل عن (محمود) أين هو؟ فيجري إليه فيحضنه ويوسعه (٩) ضمًا وتقبيلاً، ثم يثنى بابنته (جهاد) التي كان يُحبه ولا يصبر عن رؤيتها كذلك.

٤ نشأة (محمود) و(جهاد) في بيت السلطان ورعايته:

وهكذا نشأ الطفل (محمود) والطفلة (جهاد) في بيت واحد. تغذوهما وتسهر عليهما أمان، ويحنو عليهما أب واحد. فكانا يجبوان معًا في دها ليز القصر وأبهايه، وربما خرج بهما الخدم إلى حديقة القصر في الصباح الباكر فطفقا يدرجان على العشب يتمرنان على المشي، ووالدتهما تنظران إليهما من شرفة القصر، تطالعان في عيونهما الحاضر الباسم، وتتعزيان به عن الماضي الحزين والمستقبل الغامض، فإذا وقع أحد الطفلين على الأرض في غير بأس ضحكتا ضحكة هادئة، ثم رجعتا إلى ما انقطع من حديثهما. وربما تقع (جهاد) على الأرض فيدنونها (محمود) ليساعدها على النهوض، فتنظر إحدى الوالدتين إلى الأخرى وعلى ثغرها ابتسامة، وفي عينيها سؤال حائر. أيقدر لهدين الطفلين البريين أن يشببا معًا في هذا العيش الرغد (١٠) فيكون أحدهما للأخر، أم تحول دون ذلك تقلبات الدهر وفجاءات القدر؟!

(٩) يوسعه: يكثر من.

(١٠) الرغد: الهاني السعيد.

(٦) يغب: يأتي يومًا بعد يوم.

(٧) أجهشت: همت.

(٨) فت موته في عضده: أضعف موته من عزيمته.

٥ الخَوْفُ عَلَى الطِّفْلِينِ (محمود) و(جهاد) مِنْ غَدْرِ الزَّمَانِ:

وكيف تأمنانِ غَدْرَ الزَّمَانِ وَسَطَوَاتٍ^(١١) الْغَيْرِ وَتَطْمَئِنَّانِ إِلَى مَا هُمَا فِيهِ مِنْ نَعِيمِ الْعَيْشِ وَعِزِّ الْمُلْكِ، وَقَدْ شَهِدْتَا بَعَيْنَيْهِمَا كَيْفَ انْقَضَ التَّتَارُ عَلَى مَمْلَكَةِ (خُوَارِزْمِ شَاه) فَقَطَّعُوا أَوْصَالَهَا وَمَزَّقُوهَا شَرًّا مَمْرَقًا، وَكَيْفَ هَوَى ذَلِكَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ مِنْ **أَوْجٍ**^(١٢) سُلْطَانِهِ، وَانْهَزَمَتْ جِيُوشُهُ الَّتِي كَانَتْ تَمَلَأُ السَّهْلَ وَالْجِبَلَ وَتَفَرَّقَتْ عَنْهُ جُمُوعُهُ حَتَّى لَجَأَ إِلَى جَزِيرَةٍ نَائِيَةٍ مَاتَ فِيهَا وَحِيدًا شَرِيدًا!؟

وَلَا يَنْقُصُ مِنْ قَلْبِهِمَا عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ أَنَّ (جَلَالَ الدِّينِ) قَدْ اسْتَطَاعَ لِذَلِكَ الْحِينِ أَنْ يَهْزِمَ التَّتَارَ فِي كُلِّ مَوْقِعَةٍ لِقِيهِمْ فِيهَا، وَأَنْ يَدْفَعَ **غَائِلْتَهُمْ**^(١٣) عَنِ الْبِلَادِ التَّابِعَةِ لَهُ، وَأَنْ يَتَحَدَّى (جَنْكِيْزْ خَانَ) طَاغِيَتَهُمُ الْأَكْبَرَ فَيُرْسِلَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَقُولُ لَهُ فِيهِ: «فِي أَيِّ مَكَانٍ تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ الْحَرْبُ؟»

فَإِنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّهُ قَضَى عَلَى خَطَرِهِمْ وَاسْتَرَحَ مِنْ هَجْمَاتِهِمْ، وَقَدْ كَانَ (خُوَارِزْمِ شَاه) أَقْوَى وَأَعْظَمَ هَيْبَةً وَأَكْثَرَ جُنُودًا مِنْهُ، وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ فِي مَعَارِكٍ **جَمَّةٍ**^(١٤)، وَلَكِنَّهُمْ غَلَبُوهُ فِي النِّهَايَةِ بِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَتَوَالِي إِمْدَادَاتِهِمْ، وَتَدَفَّقَهُمْ كَالسَّيْلِ، وَانْتَشَرَهُمْ كَالْجَرَادِ. وَأَنَّ الْأَمَلَ لَصَعِيفٌ فِي أَنْ يَقْوَى (جَلَالَ الدِّينِ) عَلَى مَا لَمْ يَقْوِ عَلَيْهِ وَالِدُهُ الْعَظِيمُ.

٦ هُجُومُ التَّتَارِ بِجَيْشِ الْإِنْتِقَامِ:

وَلَمْ يَمِضْ عَلَى ذَلِكَ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى حَقَّقَتْ الْأَيَّامُ مَخَافَهُمَا، فَقَدْ وَرَدَتْ الْأَنْبَاءُ بِأَنَّ (جَنْكِيْزْ خَانَ) قَدْ اسْتَشَاظَ غَضَبًا مِنْ تَحَدَّى (جَلَالَ الدِّينِ) لَهُ، فَسِيرَ عَسْكَرًا أَعْظَمَ مِنْ عَسَاكِرِهِ الَّتِي بَعَثَهَا مِنْ قَبْلُ، وَسَمَّاهُ (جَيْشَ الْإِنْتِقَامِ)، وَجَعَلَ أَحَدَ أَبْنَائِهِ عَلَيْهِ، فَانْدَفَعُوا كَالسَّهَامِ، وَطَفِقُوا يَخْتَرِقُونَ الْبِلَادَ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْوَابِ (كَابُلِ).

فَقَصَدَهُمْ (جَلَالَ الدِّينِ) بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْجَيْشِ، فَلَمَّا تَقَى الْجَمْعَانِ اقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا دَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بَلِيَالِيهَا، وَكَانَ (جَلَالَ الدِّينِ) يَصْرُخُ فِي جُنُودِهِ فِي أَثْنَاءِ الْمَعْرَكَةِ: «أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ أَيْدُوا جَيْشَ الْإِنْتِقَامِ».

وَقَدْ انْتَهَى الْقِتَالُ بِهَزِيمَةِ التَّتَارِ لَمَّا أَبَدَاهُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمَصَابِرَةِ وَالْمِرَابِطَةِ، وَيَرْجِعُ مُعْظَمُ الْفَضْلِ فِي ذَلِكَ إِلَى قَائِدٍ بَاسِلٍ مِنْ قُوَادِ (جَلَالَ الدِّينِ) يُدْعَى: (سَيْفُ الدِّينِ بَغْرَاقَ)، اسْتَطَاعَ أَنْ يَكِيدَ لِلتَّتَارِ، فَانْفَرَدَ بِفِرْقَتِهِ عَنِ الْجَيْشِ وَطَلَعَ خَلْفَ الْجِبَلِ الْمُطَلِّ عَلَى سَاحَةِ الْقِتَالِ، وَلَمْ يَشْعُرِ التَّتَارُ إِلَّا بِهَذَا السَّيْلِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَنْحَدِرُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْجِبَلِ فَاخْتَلَّتْ صَفُوفُهُمْ، فَأَوْقَعَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ وَقْتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، وَغَنِمُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي نَهَبُوهَا مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي مَرُّوا بِهَا.

٧ انْقِسَامُ الْمُسْلِمِينَ سَبَبُ هَزِيمَتِهِمْ:

وَهُنَا **يَنْزَعُ**^(١٥) الشَّيْطَانُ بَيْنَ قُوَادِ (جَلَالَ الدِّينِ)، فَيَخْتَلِفُونَ عَلَى اقْتِسَامِ الْغَنَائِمِ، فَيَغْضَبُ مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ الْأَمِيرُ (سَيْفُ الدِّينِ بَغْرَاقَ)، وَيَنْفَرِدُ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا مِنْ خَيْرَةِ الْجُنُودِ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ (جَلَالَ الدِّينِ) أَنْ يَرْجِعَ إِلَى عَسْكَرِهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ وَذَهَبَ غَاضِبًا وَسَارَ مَعَهُ الثَّلَاثُونَ أَلْفًا مِنَ الْجُنُودِ، فَضَعَّفَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ جَرَاءِ هَذَا الْإِنْقِسَامِ، وَعَلِمَ التَّتَارُ بِالْأَمْرِ، فَجَمَعُوا فُلُوقَ جَيْشِهِمْ، وَانْتَظَرُوا حَتَّى تَجِيَّهُمْ أَمْدَادٌ مِنْ (جَنْكِيْزْ خَانَ).

وَبَلَغَ (جَنْكِيْزْ خَانَ) مَا وَقَعَ بِجَيْشِهِ مِنَ الْهَزِيمَةِ، فَاشْتَدَّ غَيْظُهُ، وَزَادَ حَنَقَهُ، فَجَمَعَ جِيُوشَهُ وَقَادَهَا بِنَفْسِهِ، وَتَقَدَّمَ لِقِتَالِ (جَلَالَ الدِّينِ)، فَلَمْ يَثْبُتْ لَهُ (جَلَالَ الدِّينِ)، وَفَرَّ إِلَى (غَزْنَةَ) فَتَحَصَّنَ بِهَا أَيَّامًا.

(١٥) ينزع: يفسد.

(١٣) غائلتهم: هلاكهم.

(١١) سطوات: هجمات.

(١٤) جمّة: كثيرة.

(١٢) أوج: غلوة.

٨ فرارُ (جلال الدين) إلى الهند وغرق أهل بيته:

ثم رأى أن لا قبيل له يدفع المغيرين عنها، وخشى من وقوعه ووقوع أهله في قبضة عدوه، فحزم أمتعته، وجمع أمواله وذخائره، فحملها ورحل بأهله وحاشيته صوب الهند، وسار معه سبعة آلاف من خاصة رجاله، فعبّر بهم ممر (خيبر)، ولم يكد يُفضى^(١٦) إلى سهل الهند حتى لحقته طلائع (جنكيز خان)، فكَرَّ عليهم^(١٧) وقتلهم وشردهم، ولكنّه أيقن بالهزيمة حين توالى عليه الجموع، فتقهقر برجاله إلى (نهر السند)، وعزم أن يحوضه إلى العدو^(١٨) الأخرى، ولكن العدو عاجله قبل أن يجد السفن اللازمة لحمل أهله وحريمه وأثقاله، ونتج عن ذلك غرق النسوة من أهل بيته.

٩ جيش (جنكيز خان) يلاحق جلال الدين وجنوده:

ولم يدع له العدو فرصة للتحسّر على أعز أحابيه في الحياة والتفكير في شأنهم من هول مصيبتهم، فأمر رجاله بخوض النهر، وألقى بنفسه في مقدمتهم فاندفعوا يسبحون في أثره، وذلك حين مالَت الشمس للغروب، وتلونت مياه النهر بجمرة الشفق، وما ابتعدوا عن الشاطئ إلا قليلاً حتى أقبلت طلائع العدو فوقفوا على حافة النهر، وانبرى^(١٩) رماثهم فأعملوا قسيهم، فكانت سهام تتساقط عليهم كالمطر، فأصيب كثير من رجال (جلال الدين)، ولولا سدول الظلام وحيلولته دون رؤيتهم لفنوا عن بكرة أبيهم، وأوفي (جنكيز خان) على النهر، وكان الليل قد اعتكر^(٢٠) وهو على جواده، والمشاعل تضيء من حوله، فلم يتبين أحداً في النهر، فأرسل ضحكة رنت في جنبات السهل، وأخذ يهز سيفه في الهواء ويقول: «هأنذا قضيت على (خوارزم شاه) وولده، وشفيت غليلي وأخذت بثأري» وأمر رجاله بالرحيل فرجعوا من حيث أتوا.

١٠ عبور (جلال الدين) ورفاقه نهر (السند):

وقضى الساجون شطراً من الليل وهم يُعالبون الأمواج ويتنادون بينهم بالأسماء فيتعارفون بذلك، ويتواصون بينهم بالصبر، فربما كل أحدهم من طول السباحة فاستغاث بإخوانه فيحمله من يلونه ريثما يستعيد شيئاً من نشاطه، وكان صوت (جلال الدين) يُسمع من حين إلى حين يحدوهم في المقدمة، ويحضهم على الصبر فلم يسمعه، فذهبت بهم الظنون كل مذهب، وصاح بعضهم: «قد غرق السلطان فما بقاؤكم بعده؟» فاستسلم فريق منهم للأمواج فغرقوا.

١١ تقليد أحد حاشية (جلال الدين) صوته ليُشجع جنوده:

وأدرك أحد خواص رجال السلطان الخطر، فأخذ يقلد صوت (جلال الدين) ويحدوهم كما كان جلال الدين يفعل لئلا يستينس الباقون، فكان لعمله هذا أثر جميل في نفوسهم؛ إذ انتعشت أرواحهم واستأنفوا صبرهم وجهادهم، ورجع من عزم منهم على الاستسلام للموت عن عزمه، وبقوا كذلك حتى بلغ السابقون منهم الضفة قبيل منتصف الليل، فصاحوا بإخوانهم أن قد وصلنا البر، فمنهم من خرج من الماء فارتقى على الأرض من الإعياء، ومنهم من بقي لديه فضل من القوة فأخذ يساعد الآخرين على الطلوع يجذب أيديهم، أو يارخاء ما بقي عليهم من الثياب لهم حتى يتعلقوا به. واستمر هذا العمل إلى الثلث الأخير من الليل حين لم يبق على الماء أحد من الناجين، فوضع الجميع رؤوسهم على الأرض وغرقوا في السبات العميق.

(١٦) يفضى: ينتهي ويصل.

(١٧) كرّ عليهم: رجع.

(١٨) العدو: الشاطئ.

(١٩) انبرى: اندفع وتعرض.

(٢٠) اعتكر الليل: اشتد سواده.

الجنود يلتمسون (جلال الدين) ويجدونَه:

١٢

وظلَّ الصباحُ على أربعة آلافٍ من القومِ صَرَعى في الصَّعيدِ^(٢١) يتقلَّبونَ على جنوبهم لم يُوقظهم إلا حرُّ الشمسِ، فنهضوا من نومهم خُفاةً عراةً لا يكادُ يسترهم شيءٌ من الثيابِ، والتمسوا سلطانهم بينهم، فلم يجدوه فأصابهم همٌّ عظيمٌ. فأوصاهم الرجلُ الذي قلَّدَ صوتَ السلطانِ في النهرِ ألا يئنسوا من لقائه، فربما سبَّحهم السلطانُ إلى الضَّفةِ من موضعٍ آخرَ، فلجأ إلى قريةٍ من القرى، وقال لهم إن الرأى أن يبقوا هناك ويتبلَّغوا^(٢٢) بما يجدونه من أوراقِ الشجرِ وثماره، وما يقعُ في أيديهم من صيدِ البر والبحرِ، وألا يبرحوا مكانهم ذلك حتى يأتيهم خبرُ السلطانِ، أو تعودَ إليهم فُواهم فيمشوا إلى إحدى القرى القريبة، ليحصلوا على ما يعوزهم من الطعامِ والثيابِ المعروفِ.

فوافقَ الجميعُ على هذا الرأيِ، وبعثوا جماعةً منهم للبحثِ عن (جلال الدين) في المواضعِ البعيدةِ على الشاطئِ، فعثروا عليه بعدَ ثلاثةِ أيامٍ في موضعٍ بعيدٍ رماه الموجُ معَ ثلاثةٍ من أصحابه، فقدموا على القومِ ففرحوا بنجاةِ سلطانهم، وما كادوا يُصدِّقونَ عيونهم إذ رأوه... فأمرهم بأن يتخذوا لهم أسلحةً من العصىِّ يقطعونها من عيدانِ الشجرِ، ففعلوا ما أمرهم به، ثم مشى بهم إلى بعضِ القرى القريبةِ منهم، فجرتَ بينه وبين أهلِ تلكِ البلادِ وقائعٌ انتصرَ فيها عليهم، واستلبَ أسلحتهم وأطعمتهم فوزَّعها في أصحابه، فطعموا من جوعٍ، وأمنوا من خوفٍ، وقووا من ضعفٍ. ثم دلفَ بهم^(٢٣) إلى «لاهور» فملكها واستقرَّ بها مع رجاله، وبني حولها قلاعاً حصينةً تقيه هجماتِ أعدائه من أهلِ تلكِ البلادِ.

(جلال الدين) يعيش وحيداً يفكرُ في الانتقام:

١٣

وقدَّرَ لجلالِ الدين أن يعيشَ وحيداً في هذه الدنيا، لا أهلَ له فيها ولا ولدَ، فكأنما بقى حياً، ليتجرَّعَ غُصصَ^(٢٤) الألمِ والحسرةِ بعدهم، وما هذه الرُّقعةُ الصغيرةُ التي ملكها بالهند إلا سجنٌ نُفيَ إليه بعدَ زوالِ مُلكه، وتفرَّقَ أهله وأحبابه، ولمن يعيشُ بعدهم؟! وعلامَ يُحمَلُ نفسه أعباءَ الولايةِ وتكاليفِ الإمرةِ؟ ولكنَّه تذكَّرَ أن التتارَ هم سببُ نكبتِه ونكبةِ أسرتهِ، فليعيشَ لينتقمَ منهم، ولتكنْ هذه أمنيتهِ في الحياةِ، إن لم تبقَ له فيها أمنيتهُ.

(٢٣) دلف بهم: مشى وقارب الخطو.

(٢٤) غُصص: المراد: الأحزان والهموم.

(٢١) الصعيد: وجه الأرض.

(٢٢) يتبلَّغوا: يكتفوا ويقتنعوا.



عرض الأحداث

١ نَجَاةُ محمودٍ وجهادٍ بفضلِ سلامةِ الهنديِّ:

لم يكن (جلال الدين) يعلمُ وهو يبكي أهله وذويه أحرَّ البكاءِ، ويَنفَطِرُ^(١) قلبه حُزناً عليهم، أن طفليهِ الحبيبين (محمودًا) و(جهاد) حيَّان يُرزقان، ولو عَلِمَ ذلك وأنهما لا يبعدان عنه كثيرًا - إذ يعيشان في إحدى الدساكر^(٢) المجاورة لـ (لاهور) - لطار إليهما فرحًا، وتنعزى بهما في كلِّ ما أصابه من نكبات الحياة.

ذلك أن (عائشة خاتون) و(جهان خاتون) لما أيقنتا بالنكبة يوم النَّهرِ، ورأتا أن لا مَحِيصَ مِنَ الموتِ أو الأُسْرِ، عزَّ عليهما أن تريا الطفلين البريئين يذبحان بخناجر التتار المتوحشين، أو يغرقان معهما في أمواج النَّهرِ، وجاشت^(٣) بهما عاطفة الأمومة، فأوحت إليهما في ساعة الخطر أن يسلماهما إلى خادمٍ هنديٍّ أمينٍ، كان قد خدَم الأسرة منذ أيام (خوارزم شاه)، ليهرب بهما من وجه التتار، ويحملهما إلى مسقط رأسه، حيث يعيشان عنده في أمن وسلام، وأزادت أن تُخبرًا (جلال الدين) بما صنَعته، ولكن ضاق وقتُهما، وشغلتهما الهولُ عن ذلك.

أما الشيخ (سلامة الهندي) فقد فصلَ عن المعسكر قبيلَ عصرِ ذلك اليوم المشنوم، وأركبَ الطفلين على بَعْلَةٍ بعد أن كسأهما ملابس العامَّة من الهنود، وساقهما حيثما نحو الشمال على شاطئ النَّهرِ، ثم سلك بهما الطُّرُق المتعرَّجة، وغاب بهما في مُنعطفات الجبال. وأدركه الليلُ فأوى إلى مغارة في سفح جبلٍ، فأنزلَ الطفلين وربطَ البعلة إلى الصخرة في فم المغارة، وفرش لهما داخلها وطفق يسامرهما، ويهدئ روعهما، ويعللُهما^(٤) بقاء أهلهما غدًا في (لاهور)، بعد أن يكسِرَ السلطان (جلال الدين) التتار، وما زال بهما كذلك حتى غلبهما النعاسُ، فناما مكانهما ونام بجانبهما.

فلما كان اليوم الثاني ساقَ البعلة متيامنًا جهة النَّهرِ، حتى أشرفَ عليه عندَ الزوالِ، ثم لاح قاربٌ من قوارب الصَّيد، فلوح له الشيخ بردائه، فاقترَب منه، فإذا عليه صيادٌ وابنه ومعهما شبكةُ الصَّيدِ، فسأله الصيادُ ماذا يريد؟ فأجابه الشيخُ بالهنديَّة، ورجاه أن يحمله، ويحملَ طفليه إلى الضَّفة الشَّرقية للنَّهرِ، ويعطيه على ذلك أجرًا طيبًا، فقبل الصيادُ وفرح بالأجر. وكان الشيخُ سلامةً قد أوصى الصبيَّين ألا يتفوّها بما يدلُّ على أنهما من بيتِ السُّلطانِ (جلال الدين)، وأفهمهما أن صاحبَ القاربِ قد يسلمُهما إلى التتار إذا عرفَ أصلهما، ففهما ما أراد على صغر سنِّهما، فقد تعلَّما الخوفَ والحذرَ مما مرَّ بهما من الأهوالِ وما شهداهُ من الحوادثِ المروِّعة، فكانا - وهما في الرابعة من سنِّهما - كأنَّهما من أولادِ السَّابعة أو الثامنة.

وصلَ القاربُ إلى الشَّطِّ، فنزلَ الصيادُ من القاربِ وساعدَ الشيخَ وطفليهِ على النزولِ. ثم أرشدَ الشيخُ إلى خيرِ طريقٍ يوصلُه إلى أقربِ قريةٍ من ذلك الموضع، وقال له: «صحبتكُ السَّلامةُ في طريقك». فأعطاه الشيخُ دينارًا، وكان قد رضى بأقلِّ من ذلك، وفرح به وشكره.

(١) ينفطر: يتشقق.

(٢) الدساكر: القرى العظيمة.

(٣) جاشت: تحركت.

(٤) يعللها: يصبها.

٢) وُصُولُ (الشيخ سلامة) بالطَّالِبِينَ إلى قريته وحديث أهلها عنه:

سارَ الشيخُ في الطريق الذي أرشدهُ إليه الصيادُ حاملاً (جهادَ) على كتفيه حتى إذا ظنَّ به (محمود) التعبَ في السيرِ أنزلها تسيرُ وحملَ (محمودًا) مكانها. وهكذا **دَوَالِيكَ** (٥) حتى بلغَ القريةَ بعدَ غروبِ الشمسِ، فباتَ في كوخٍ بها، واشترى ما يلزمه ويلزمُ الطفلينِ من الطعامِ. حتى إذا أصبحَ الصُّبْحُ ابتاعَ له جَمَارًا من القريةِ أركبَهُما عليه، وظلَّ كذلكَ ينتقلُ في القرى حتى وصلَ إلى مَسَقَطِ رأسه في قريةٍ من القرى المجاورة لمدينة (لاهور). وعاشَ الصبيَّانِ في القريةِ الهادئةِ في أمنٍ وسلامٍ كما أرادتْ لهُما والدتاهُ المرخومتانِ.

وكانَ الشيخُ يرعاهُما رعايَةً بالغةً، ولا يألو جُهدًا في ترفيه عيشهما وإدخالِ السرورِ عليهما بكلِّ ما يملكُ من وسائلِ التسليةِ والترويحِ، وإذا سئلَ عنهما قالَ إنَّهما يتيمَّانِ وجدهما في طريقه فتنَّاهُما، ولكنَّ هذا القولَ لم يُقنِعْ فُضُولَ أهلِ القريةِ، فأخذوا **يتخرَّصون** (٦) ويخترعون الحكاياتِ، ويحكونَ القصصَ عن أصلهما، ويتنفقُ معظمهم في أنَّهما من أولادِ الملوكِ؛ لما يندو على وجوههما من سيماءِ الملوكِ، وأماراتِ النبيلِ، ونضرةِ النعيمِ.

ولم يجدِ الشيخُ سلامةً بُدًّا من **الإفشاءِ** (٧) بحقيقةِ حالهما إلى بعضِ أقاربه الأذنينَ الذينَ كانوا يعلمونَ بأنَّه قضى جُلَّ عمره في خدمةِ السلطانِ (خوارزم شاه) والسلطانِ (جلال الدين) من بعده، وسمِعوا بما حلَّ بهما من نكبةِ التتارِ، ولكنَّه استكتمهم الخبرَ لئلا يُصيبَ الصبيَّانِ من جرَّاءِ ذلكِ سوءٌ، ولم تمضِ إلا بُرهةٌ قصيرةٌ حتى انتهتْ إلى أهلِ القرى المجاورة لمدينة (لاهور) أبناءُ السلطانِ (جلال الدين) وفرَّاره من بلادِ الهندِ، ومطاردةِ (جنكيز خان) له حتى اضطرَّه إلى حوضِ النهرِ مع عسكره، وترامى إليهم ما جرى بعدَ ذلكِ من الوقائعِ بينه وبينَ أهلِ الهندِ حتى افتتحَ (لاهور) واتَّخذها قاعدةً ملكه، وأخذ يُوطدُ سلطانَه بشنِّ الغاراتِ على ما حوَّله من البلادِ والقرى، فانتشرَ خوفه في قلوبِ أهلها.

٣) لِقَاءُ السُّلْطَانِ (بجهاد) و(محمود) في قرية (الشيخ سلامة):

وَحَرَجَ لذلكِ موقفِ الشيخِ سلامةَ بينَ أهلِ بلاده؛ إذ بدءوا يشكُّونَ في أمره وفي أمرِ الصبيَّانِ اللذينِ معه، ويرجِّحونَ أنَّهما من أولادِ السلطانِ (جلال الدين)، فحشىَ عليهما من فتكهم، وأخذ يفكرُ في طريقةٍ للفرارِ بهما إلى (لاهور). ويبيِّنُما هو ينتظرُ سُوحَ الفرصةِ لذلكِ، إذا جنودُ السلطانِ قد أقبلوا يغزونَ القريةَ، فخرجَ إليهم الشيخُ وعرفهم بنفسه، وأبرزَ لهم ابنةَ السلطانِ وابنَ أخته، وتوسَّلَ بهما أن يكفُّوا عن غزو القريةِ حتى يأتيهم أمرُ السلطانِ، فأجابوا طلبه، وبعثوا رسولًا إلى السلطانِ بالخبرِ، ولبثوا ينتظرونَ خارجَ القريةِ، فما راعهم إلا السلطانُ قد أقبلَ على جوادهِ في **لَمَّةٍ** (٨) من فرسانه، فلما سلَّمَ عليهم، قال: «أين (الشيخُ سلامة)؟» فتقدَّمَ إليه (الشيخُ سلامة) وقبَّلَ ركبَّه قائلاً: «هأنذا عبدك وعبدُ أبيك يا مولاي». **فترجَّل** (٩) له السلطانُ وعانقه، وقال له: «أين (محمود) و(جهاد)؟» وما أتَمَّ السلطانُ كليمته حتى اندفعَ الصبيَّانِ فارتَميا عليه، فضمَّهما إلى صدره، وطفقَ يُقبلُهما ويُقبِّلانه، وهو يقولُ: «ابنتي (جهاد).. ابنتي (محمود).. أنتما على قيدِ الحياة.. الحمدُ لله، لستُ وحيدًا في هذه الدنيا، لقد بقيتُ لي، وبقيتُ لهما».

ثمَّ دَفَعَ الصبيَّانِ إلى فارسَيْنِ من فرسانه ليُرِدَّاهُما خلفهما، وركبَ جوادهَ وأمرَ (الشيخَ سلامة) أن يركبَ معه، وقالَ لقائدِ الحملةِ: «كفُّوا عن هذه القريةِ والقرى التي تُجاورها، ولا يؤخِّدُ من أهلها **الخِراجَ** (١٠)؛ إكرامًا (للشيخِ سلامة)». فشكره الشيخُ ودعا له بطولِ العمرِ.

(٥) دواليك: تداول بعد تداول، أي استمرار هذا العمل.
(٦) يتخرصون: يكذبون بالباطل.

(٧) الإفشاء: البوح والتصريح.
(٨) لمة: رفقة.

(٩) فترجَّل: نزل عن فرسه.
(١٠) الخراج: نوع من الضريبة.

٤ السُّلْطَانُ (جَلالُ الدِّينِ) يُكْرِمُ القَرْيَةَ وَأَهْلَهَا:

وانتشر الخبر في القرية فخرج أهلها رجالاً ونساءً فرحين مُتهلِّلين؛ لِيُشَاهِدُوا السُّلْطَانَ (جَلالَ الدِّينِ). وتقدَّم إليه وقد من شيوخها وكبرائها يشكرونه على مكرمته وقضله. فحيَّاهم السُّلْطَانُ، وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ الفَضْلَ لِلشَّيْخِ (سَلَامَةَ)، فلا تشكروني وأشكروه». فأقبل الرجال على (الشيخ) وحملوه على الأعناق.

وتبأشر سكان القرى المجاورة بما أعلنه السُّلْطَانُ (جَلالُ الدِّينِ) مِنَ الأَمْرِ بالكفِّ عَن غزْوِ بلادهم وإعفائها مِنَ الخراجِ، فَصارَ ذَلِكَ حَدِيثَ المَجالِسِ والأَسْمارِ، وأصبح (جَلالُ الدِّينِ) حبيبًا إلى قلوبهم بعد أن كانت أكبأدهم تغلى كراهيةً له، وَمَضاجِعُهُمْ تُقَضُّ (١١) خوفًا منه. وقدمت وفودهم على قصر السلطان بـ (لاهور) تشكره على إحسانه إليهم، وتقدم له ولاءهم وطاعتهم حاملَةً معها الهدايا النفيسة، فقبل السلطان هداياهم وأجازهم عليها، وردَّهم إلى بلادهم مكرمين.

٥ عَوْدَةُ الأَمْلِ إلى قَلْبِ (جَلالِ الدِّينِ) بِاسْتِعَادَةِ مُلْكِهِ:

وتبدلت أحوال (جَلالِ الدِّينِ) بعد عثوره على ولديه الحبيبين، وعاد إلى وجهه البشر بعد العبوس، والطلاقه بعد الانقباض، وانتعش في قلبه الأمل، وشعر كأنَّ أهله وذويه بعثوا جميعًا في (محمود) و(جهاد)، وكلَّما رأهما تذكَّرتهم وتعزَّى بهما عنهم، وحمد الله على أن لم ينقطع سببه. وقوى رجاؤه في استعادة ملكه ومُلكِ آبائه، والانتقام من أعدائه التتار ليورث محمودًا وجهادًا مُلْكًا كبيرًا، متين الأساس، قوى الدعائم، يُخلدُ به سُوددٌ (١٢) بيته العظيم.

(١٢) سُودد: شرف.

(١١) مضاجعهم تقض: لا يهنا لهم نوم.



عرض الأحداث

عيشة حزينه بالهند وتفكير في الانتقام:

عاش السلطان (جلال الدين) في مملكته الصغيرة بالهند عيشة حزينه، تسودها الذكريات الأليمة؛ ذكريات ملكه الذاهب، وذكريات أهله الهالكين، وكان يجد سلواه الوحيدة في ولديه الحبيبين: (محمود) و(جهاد)، فيقضي جل أوقاته معهما، ينزل إلى عالمهما الصغير ويصادفهما، ويشترك معهما في ألعابهما، ويجاريهما في أحاديثهما البريئة، وأحلامهما الصافية، فيجد في ذلك لذة تنسيه هموم الحياة وآلامها.

وكان مع ذلك لا ينسى تدبير ملكه، وتنظيم شؤونه، وتقوية جيشه وتعزيز هيئته، فكان في كفاح دائم مع أمراء الممالك الصغيرة التي تكتنف مملكة (لاهور)، يدفع غاراتهم على بلاده، ويغزوهم **الفينة** (١) بعد الفينة، وهو في ذلك يتنسم (٢) أخبار ممالكه السابقة، ويرقب حركات التتار بها، يترصد بهم **الدوائر** (٣)، وينتظر الفرص للانقضاض عليهم، والانتقام منهم، واسترداد ممالكه وممالك أبيه من أيديهم، أو أيدي أعوانهم وأجرائهم، فقد كان التتار أمة لا تطمع في ملك البلاد وحكمها، وحسبها أن تغزوها فتقتل من تقتل من رجالها ونسائها وأطفالها، وتسيب منهم من تشاء، وتنهب خزائنها، فلا تدع شيئاً إلا أتت عليه، ثم تغادرها إلى بلادها حاملة معها الغنائم والأسلاب، **فتنقب** (٤) فيها ما تنقب، ثم تعود كرهة أخرى فيطغى سيلها على الأمم والممالك فتقتل وتنهب وتسلب، ثم تعود إلى منبعها، وهكذا دواليك، وربما عقدوا مع أهل البلاد التي غزوها اتفاقاً يأمنون به من عودتهم، على أن يحملوا إليهم جزية كبيرة في مستهل كل عام. وحينئذ يولون عليها من يتوسمون فيه الميل إليهم والرضا بسياساتهم من عبيد الأهواء الطامعين في المناصب من أهل تلك البلاد.

كذلك كانت الحال في العواصم والمدن التي تخلى عنها (جلال الدين)، فقد وليها جماعة من الطغاة المستبدين، لا هم لهم إلا جمع المال من كل سبيل، فيصادرون أملاك الناس، ويفرضون الضرائب الثقيلة عليهم، ويسلبون أموال التجار، ومن جرؤ على الشكوى منهم كان جزاؤه القتل أو الإهانة والتعذيب.

خروج جلال الدين لقتال التتار:

وكان لـ (جلال الدين) فيها أعوان وأنصاراً لا يحصون كثرة، يتمنون عودته، ويراسلونهُ سراً فيصفون له أحوال الناس بها، وما يعانونه من ظلم الحكام وفسادهم وطغيانهم، **ويحضونه** (٥) على العودة إليهم، ويعدونهُ بالنصر والتأييد، وبأنهم سيثورون ثورة عارمة على أولئك الحكام إذا ما عاد (جلال الدين) إلى بلاده، وذكروا له أن (جنكيز خان) مشغول عنهم بحروب طويلة في بلاده مع قبائل (الترك).

فراى (جلال الدين) أن الفرصة سانحة، وصحت عزمته على اغتنامها، فتجهز للمسير، وكنم خبره عن الناس جميعاً ما عدا قائده الكبير الأمير (بهلوان أزيك)؛ إذ استنابه على ما يملك بالهند، وترك له جيشاً يكفى لحمايته، وسار هو بخمسة آلاف قسّمهم إلى عشر فرق، جعل على كل منها أميراً، وأمرهم أن يسيروا خلفه على دفعاتٍ من طرقٍ مختلفة، حتى لا يتسامع الناس بخبر مسيرهم.

(٥) يحضونه: يحثونه.

(٣) الدوائر: المصائب.

(١) الفينة: الحين.

(٤) تنقب: تختبئ.

(٢) يتنسم: يستطلع.

٣ (جلال الدين) يفكر: هل يأخذ طفليته معه أو يتركهما؟

وكان قبل مسيره قد فكر ملياً في أمر ولديه الحبيبين وتردد طويلاً، أيسّصحبهما معه، أم يتركهما (بالهند)؟ فإنه إن أخذهما معه عرّضهما لأخطار الطريق ومتاعب هذه الرحلة الشاقّة، وإذا نجا بهما من ذلك رمى بهما إلى ما هو مُقدّم عليه من الكفاح العظيم، والقتال المستميت، وماذا يكون مصيره، وسيُفضى به هذا لا محالة إلى مواجهة التتار وقاتلهم من جديد، ومن ذا يضمن له الغلبة على تلك الأمة الهائلة، التي لا نهاية لجموعها، ولا صائد لهجماتِها، ولا عاصم من أمرها إلا من رحم الله؟

وإنه إن تركهما بالهند فلا طاقة له بفراقهما، ولا طاقة لهما بفراقه، وليس له في الدنيا أهلٌ غيرهما، وما لهما فيها من أهلٍ غيره. وقد جدّهما بعد ضياع، ولقيهما بعد يأس، فانتعش بهما أملُه، وأشرق بهما وجهُ حياته، وكان له عزاءٌ عن كل ما فقد من ملكه وأهله، أفتركهما وحيدين في بلادٍ غريبةٍ عليهما لا يدري ماذا يكون مصيرهما فيها؟ فربما يطمعُ أمراءُ الهند في مملكة (لاهور)، ويستضعفون نائبه عليها حين يبلغهم سير السلطان بمُعظم عسكره عنها، فيقومون عليها قومةً واحدةً، وتسقط في أيديهم، ويومئذ لا يكون لرجالهم مهربٌ، ويقعُ الأميران في قبضتهم، ولا أمل في نجاتهما من سيوفهم.

٤ (جلال الدين) يفضّل أخذهما معه:

أخذ (جلال الدين) يوازن بين الخطتين إلى أن آثر أهون الخطرين عنده، ففضّل أن يأخذ الأميرين معه؛ إذ كان هذا أحبّ الرأيين إلى نفسه، وأقربهما إلى هواه، فحسبه أن يراها دائماً معه، فإذا قدر له النجاح فذاك، وإن خاتته الحظوظ فلن يبقى بعد ذلك أملٌ في الحياة، ولن يؤويه بعد ذلك مكانٌ، وخير لهما حينئذ أن يقتلا معه، فلا يتعرضا لما يتعرض له مثلهما من الشقاء والهوان.

٥ (جلال الدين) يدرب طفليته على الفروسية وتحمل المشاق:

وكان (جلال الدين) كان ينظر من سخب^(٦) الغيب إلى هذا اليوم ويستعدُّ له؛ إذ عني بتدريبيهما من صغرها على ركوب الخيل وحمل السلاح وسائر أعمال الفروسية، وتربيتهما تربيةً خشيئةً تُعدّهما لتحمل المشاق، وركوب الأخطار، والتغلب على المتاعب.

وظالماً سمعا منه أو من (الشيخ سلامة الهندي) أخبار جدّهما (خوارزم شاه) ووقائعه مع التتار، وحبوب (جلال الدين) معهم من بعده، فكانا يظربان لذلك ويتحمسان، وكثيراً ما كان (جلال الدين) يصف لـ (محمود) شجاعة والده الأمير (ممدود) وحسن بلائه في قتالهم، وغرامه بمبارزة قوادهم وأمرائهم، إلى أن يقص عليه أخبار واقعة (هراة) التي أصيب فيها، فمات من جرحه شهيداً في سبيل الله بعد أن نكل^(٧) بالأعداء تنكيلاً، ومزقهم شرمزق، فيمتلئ (محمود) بالحماسة، ويود لو شهد تلك الوقائع، فكانت له في قتال التتار مواقف مشهودة.

وكان (محمود) يشعر في قرارة نفسه بأنه سيفاتل التتار يوماً ما، إذا بلغ مبلغ الرجال فيثأر منهم لأبيه، وينتقم منهم لما أصاب جدّه وخاله ووالدته وجدته وسائر أهله، وقد سيطر عليه هذا الشعور، وملك عليه جميع مذاهبه، فكان شغله الشاغل وهمه المقعد المقيم، ولا يفتأ^(٨) يفكر فيه نهاراً، ويحلم به ليلاً. وإنه ليطغى عليه أحياناً فيقع منه في كربٍ عظيم، فلا يجد أداة يعبريها عن حبيس رغبته وينفس^(٩) بها عن كربيه، إلا أن ينطلق في عالم الخيال، حيث يُصور له الوهم معارك تدور بينه وبين التتار، ينتصر فيها عليهم، ويشتت جموعهم، ويجنّد أبطالهم، ويفرق صفوفهم، وينهزمون فيجد في طلبهم ويتعقب آثارهم حتى يُشردهم إلى أقاصي البلاد، ويعود إلى المدينة ظافراً تقام له الزينات وتضرب له الطبول، وتنتثر عليه الأزهار والرياحين.

(٦) سخب: ستر أو شق.

(٧) نكل: عاقب.

(٨) لا يفتأ: يستمر.

(٩) ينفس: يكشف.

٦ السُّلْطَانُ وَ(جِهَادُ) يُشَجِّعَانِ (مُحْمُودًا) عَلَى فِكْرَةِ الْإِنْتِقَامِ مِنَ التَّتَارِ:

وكانت (جهادُ) تُشاطرُهُ هذا الشعورَ، وتُشجِّعُهُ على حُرُوبِهِ هَذِهِ وَمَعَارِكِهِ، وترى فِيهَا تَحْقِيقًا لِأَمَانِيهَا فِي بَطْلِهَا الْعَظِيمِ، وَتَنْفِيسًا لِمَا يَحْتَدِمُ فِي صَدْرِهَا مِنْ كِرَاهِيَةِ التَّتَارِ، وَحُبِّ الْإِنْتِقَامِ مِنْهُمْ، فَكَانَ لَا يَلْدُ لَهَا شَيْءٌ مَا يَلْدُ لَهَا الْإِضْغَاءُ إِلَى حَدِيثِهِ، حِينَ يَقْضُ عَلَيْهَا مَا دَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مِنَ الْمَعَارِكِ الْهَائِلَةِ، وَمَا أَظْهَرَ فِيهَا مِنْ آيَاتِ الْبَطُولَةِ وَالْإِقْدَامِ. حَتَّى (جَلَالُ الدِّينِ) نَفْسُهُ كَانَ يُشَجِّعُ (مُحْمُودًا) فِي أَعْمَالِهِ الْحَرْبِيَّةِ، وَيُجَارِيهِ فِي تَصَوُّرَاتِهِ، وَيُضْعِي لِأَحَادِيثِ بَطُولَتِهِ وَيُنْبِي عَلَيْهِ فِيهَا، وَيَتَلَطَّفُ فِي إِسْدَاءِ النَّصَائِحِ إِلَيْهِ خِلَالِهَا، وَقَدْ أَمَرَ رَجَالَهُ وَحُجَّابَ^(١٠) قَصْرِهِ وَخَدَمَهُ أَنْ يُجَارَوْهُ فِي أَحْلَامِهِ، وَيُصَدِّقُوهُ فِي مَزَاعِمِهِ^(١١). فَمَا إِنْ سَمِعَ (مُحْمُودٌ) وَ(جِهَادٌ) بِعِزْمِ (جَلَالِ الدِّينِ) عَلَى الْمَسِيرِ لِقِتَالِ التَّتَارِ وَاسْتِرْدَادِ بِلَادِهِ، حَتَّى أَظْهَرَ لَهُ مِنَ الْفَرَحِ وَالِاسْتِثْبَارِ بِذَلِكَ مَا جَعَلَهُ يَعْجَبُ مِنْ نَفْسِهِ، كَيْفَ فُكِّرَ فِي تَرْكِهِمَا بِالْهِنْدِ، وَعَدَمِ اصْطِحَابِهِمَا مَعَهُ فِي رِحِيلِهِ، إِذْ لَشِقَّ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ، وَأَذَاهُمَا أَبْلَغَ الْأَذَى، وَرُبَّمَا أَعْجَزَهُ أَنْ يَحْمَلَهُمَا عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَرْهَقَهُمَا أَوْ يَحْمَلَهُمَا مَا لَا طَاقَةَ لَهُمَا بِهِ.

٧ خُرُوجُ السُّلْطَانِ مِنَ الْهِنْدِ وَاسْتِيْلَاؤُهُ عَلَى كُلِّ بِلَادِ (إِيرَانَ):

سَارَ (جَلَالُ الدِّينِ) مِنَ الْهِنْدِ وَمَعَهُ خَوَاصُّ رَجَالِهِ، فَقَطَّعُوا الْمَفَازَةَ عَلَى خِيُولِهِمْ، وَعَبَرُوا نَهْرَ (السُّنْدِ) فِي مَرَكَبٍ عَظِيمَةٍ قَدْ أَعَدَّهَا (جَلَالُ الدِّينِ) لِذَلِكَ مِنْ قَبْلُ، حَمَلْتُهُمْ وَحَمَلَتْ خِيُولُهُمْ وَعَتَادَهُمْ، وَتَبِعْتُهُمْ فَرَقٌ جَيْشِهِ فَرَقَةٌ بَعْدَ فَرَقَةٍ حَتَّى التَّقَوْا جَمِيعًا عِنْدَ مَمَرٍ (خَيْبَرَ)، فَسَارُوا حَتَّى إِذَا اقْتَرَبُوا مِنْ (كَابُلِ) بَعَثَ (جَلَالُ الدِّينِ) رِسَالًا إِلَى أَشْيَاعِهِ بِهَا يُخْبِرُونَهُمْ بِمَجِيئِهِ، فَفَرَّحُوا بِذَلِكَ وَأَسَاعَوْهُ فِي الْمَدِينَةِ، فَوَثَبَ أَهْلُهَا عَلَى حَاكِمِهِمْ وَأَشْيَاعِهِ فَقَتَلُوهُمْ وَدَخَلَ (جَلَالُ الدِّينِ) الْمَدِينَةَ فَمَلَكَهَا بِدُونِ قِتَالٍ كَبِيرٍ. وَشَاعَ هَذَا الْخَبْرُ فِي سَائِرِ الْمَدِينِ وَالْعَوَاصِمِ، فَاسْتَعَدَّ دُعَاةُ التَّتَارِ وَأَعْوَانُهُمْ، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُلَاقَاتِهِ وَمُقَاوَمَتِهِ، وَبَعَثُوا إِلَى (جَنْكِيَزْ خَانَ) يَسْتَنْجِدُونَهُ، فَعَاجَلَهُمْ (جَلَالُ الدِّينِ) قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ إِمْدَادَاتُ التَّتَارِ. فَمَضَى يَفْتَحُ الْمَدِينَةَ بَعْدَ الْمَدِينَةِ بِغَيْرِ عَنَاءٍ يُذَكِّرُ؛ لِأَنَّ أَهْلَهَا كَانُوا يَتُورُونَ عَلَى حَاكِمِهِمْ حِينَ يَقِفُ (جَلَالُ الدِّينِ) عَلَى أَبْوَابِهَا، وَيُسَاعِدُونَهُ عَلَيْهِمْ، فَيَلْوِذُ هَؤُلَاءِ الْخَوْنَةَ بِالْفِرَارِ إِلَى (جَنْكِيَزْ خَانَ)، حَتَّى وَصَلَ (جَلَالُ الدِّينِ) (كِرْمَانَ)، ثُمَّ سَارَ إِلَى (الْأَهْوَاذِ) فَاسْتَوَى عَلَيْهَا، ثُمَّ (أَذْرَبِيحَانَ) فَمَلَكَهَا، وَدَانَتْ لَهُ سَائِرُ بِلَادِ (إِيرَانَ).

٨ (مُحْمُودٌ) وَ(جِهَادٌ) سَعِيدَانِ بَانْتِصَارَاتِ السُّلْطَانِ:

وَكَانَ (مُحْمُودٌ) وَ(جِهَادٌ) يَسِيرَانِ حَيْثُ سَارَ (جَلَالُ الدِّينِ) لَا يُفَارِقَانِهِ فِي تَنْقُلَاتِهِ كُلِّهَا، وَكَانَ يَقُومُ بِخِدْمَتَيْهِمَا فِي ذَلِكَ الشَّيْخِ (سَلَامَةُ الْهِنْدِيِّ) وَ(سَيْرُونَ السَّائِسِ)، مَا كَانَ أَشَدَّ فَرَحَ (مُحْمُودِ) وَهُوَ يَتَنَقَّلُ فِي رِكَابِ خَالِهِ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، فَتَفْتَحُ لَهُمَا أَبْوَابُهَا، وَتَدُقُّ لَهُمَا الطُّبُولُ، وَتَصْطَفُّ الْجَمَاهِيرُ لِمَشَاهِدَتَيْهِمَا وَتَحِيَّتَيْهِمَا، وَتَتَعَالَى أَصْوَاتُهُمْ بِالْهَتَافِ لِلْسُّلْطَانِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ! وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَانَ يَشْتَهِي أَنْ يَرَى وَجْهَ التَّتَارِ، وَكَثِيرًا مَا سَأَلَ خَالَه: «أَيْنَ أَعْدَاؤُنَا التَّتَارُ؟ مَتَى يَخْرُجُونَ إِلَيْنَا فَنَقَاتِلَهُمْ؟» فَيَبْتَسِمُ السُّلْطَانُ (جَلَالُ الدِّينِ) وَيَجِيبُهُ: «لَا تُسْتَعْجَلِ الشَّرَّ يَا بُنَيَّ، إِنَّهُمْ آتُونَ إِلَيْنَا قَرِيبًا، فَنَاصِرُنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

(١١) مزاعمه: أوهامه وظنونته.

(١٠) حجاب: المفرد: حاجب وهو البواب.

٩ استِقرارُ الأمورِ للسلطانِ وتمجيدُ ذِكرِ والدِه:

عادتِ الميَاهُ إلى مجاريها، وخطبَ الخطباءُ للسلطانِ (جلالِ الدين) بن (خوارزم شاه) ولولِيَّ عهده (محمود بن ممدود) على منابرِ البلادِ جميعِها، وكانَ أولَ ما اهتمَّ به (جلالُ الدين) بعد أن استتبَّتْ^(١٢) له الأمورُ فيها أن يُحييَ ذِكرَ والدِه العَظيمِ، فسارَ في موكبٍ عظيمٍ لزيارته في الجزيرة التي دُفن بها، فبَكَى عندَ قبره وترحَّمَ عليه، ثم أمرَ بنقلِ رُفاته، فدَفَنه بقلعة (أزدهن) في مَشْهَدٍ حَافِلٍ حَضَرَه العُلَمَاءُ والكِبَرَاءُ والأعيانُ مِنْ جميعِ الأصْصاعِ^(١٣)، وبنى عليه قُبَّةً عَظيمةً، أنفقَ على بنائها وزخرفتها أموالاً كَبيرةً، وحبَلَبَ لها أمهرَ البنائينَ والصُّناعِ.

١٠ السلطانُ يُعِدُّ جيشَ الخلاصِ ويلقى جموعَ التتارِ في سَهْلِ (مرو):

وما إن أتمَّ ذلكَ حتَّى بلغه أن (جنكيز خان) قد أرسلَ جيوشًا عَظيمةً لقتاله بقيادة أحدِ أبنائه، فتجهَّزَ للقائهم، وسارَ بأربعينَ ألفًا يتقدمهم جيشُه الخاصُّ الذي أتى به من الهنْدِ وسَمَّاهُ (جيشَ الخلاصِ)، وكانَ قد بَقِيَ منه زُهَاءٌ^(١٤) ثلاثةَ آلافِ، فلقى جموعَ التتارِ في سَهْلِ (مرو)، ودارتْ بينَ الفريقينِ معركةٌ مِنْ أهولِ المعاركِ ثبتَ فيها (جيشُ الخلاصِ) حتَّى بَادَ مُعْظَمُه، واضطربتْ صفوفُ المسلمينَ، ويئسَ (جلالُ الدين) من الانتصارِ، فصمَّمَ على أن يُستشهدَ في المعركةِ، فالتفتَ إلى (محمود)، وكانَ واقفًا على جواده خلفه، وهو يتقدُّ حَمَاسَةً وَغَيْرَةً، فقالَ له: «هَأَنْتَ ذَا قَدِ رَأَيْتَ التتارِ يا (محمود)، وإني سأقاتلهم بنفسي، فاثبتْ خلفي، ولا تَدْعُ أَحَدًا يَأْسِرُكَ». فتهلَّلَ وجهُ (محمود)، وعدَّ ذلكَ فخراً عَظيماً أن يثقَ خاله به.

١١ صُموذُ الأميرِ (محمود) يَزِيدُ مِنْ حَمَاسِ الْمُسْلِمِينَ لِلْقِتَالِ:

وعجِبَ السلطانُ مِنْ رِبَاطَةِ جَاشِ الْغَلَامِ^(١٥) وتهلَّله للموتِ، وتقدَّمَ يُحْرِضُ رجاله ويجمعُ صفوفهم، ويُقاتلُ بنفسه، والأميرُ الصغيرُ وراءه على جواده والسيفُ في يمينه، فلما رأى المسلمونَ ذلكَ دَبَّتْ فيهم الحَمِيَّةُ، فقاتلوا دونَ السُّلْطَانِ قتالاً عَنيفاً.

١٢ انضمامُ جنودِ الله مِنْ مُسْلِمِي (بُخَارَى) و(سمرقند) يُودَى إلى نَصْرِ (جلالِ الدين):

وبينما هُمُ كذلكَ يُقاتلونَ مُستَميئينَ والسلطانُ في مقدمتهم والتتارُ ظاهرونَ عليهم، إذا بصفوفِ التتارِ قد اضطربتْ، وإذا بأصواتٍ تسمعُ مِنْ خَلْفِهِمْ: «اللهُ أكبرُ! اللهُ أكبرُ! نحنُ جنودُ الله! أيُّها المسلمونَ، قاتلوا المشركينَ!». فعجِبَ المسلمونَ من أمرهم، وظنَّ بعضهم أن هؤلاءِ ملائكةٌ بعثهم اللهُ لِتأييدِ المسلمينَ، فحملوا على التتارِ حملةً صادقةً، وهُم يصيحونَ: «اللهُ أكبرُ!». وما هِيَ إلا لحظةٌ حتى انهزَمَ التتارُ، ولكنهم لم يجدوا مَهْرِيًّا؛ إذ تلقاهم المسلمونَ من أهلِ (بُخَارَى) و(سمرقند)، وكانوا قد خرجوا من بلادهم عقبَ مسيرِ التتارِ، فكبَسُوهُمْ^(١٦) مِنْ خَلْفِهِمْ على غِرَّةٍ^(١٧) منهم، فأعملَ الفريقانِ مِنَ المسلمينَ سُيوفهم حتَّى أبادوهم عن بكرةِ أبيهم، وتصافحَ الفريقانِ مِنَ المسلمينَ احتفالاً بالنصرِ. وقرِحَ السلطانُ (جلالُ الدين) بجيشِ (بُخَارَى) و(سمرقند) وأثنى عليهم، وكانَ ممَّا قاله لَهُمْ: «إنكمُ جنودُ الله حقًّا، وما أنتمُ إلا ملائكةٌ بعثهمُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ لِتأييدِ المسلمينَ، وإننا مَدِينُونَ لَكُمْ بِحياتنا وانتصارنا». وأكرمهم وَخَلَعَ عليهم، وعَرَضَ عليهم الانضمامَ إلى جيشه فقبلوا شاكرينَ.

(١٥) رباطة جاش الغلام: ثبات نفس الغلام.

(١٦) كبسوهم: شدوا عليهم.

(١٧) غرَّة: فجأة وغفلة، الجمع: غرر.

(١٢) استتبَّت: استقامت واستقرت.

(١٣) الأصصاع: النواحي.

(١٤) زُهَاء: ما يقرب من - قرابة.

وكان (جلال الدين) يعلم حق العلم أن (جنكيز خان) آتٍ بمجموعه يوماً ما للانتقام منه، وأن انتقامه سيكون عظيماً مهولاً، وأن عليه ألا يطمئن إلى الانتصار الذي أحرزه في سهل (مرؤ)، وأن يستعد لذلك اليوم العَبُوسِ .

إلى أن جاءته كتب من بلاده تُنبئُه بسير (جنكيز خان)، فطار إليها على عَجَلٍ، فافتقد في طريقه هذا ثمرتي قلبه! وأنسى حياته: (محموداً) و(جهاداً) حين كان يجتاز بلاد الأكراد قافلاً إلى بلاده، فطلبهما في كل مكان، والتمسهما بكل سبيل، فكأنما ابتلعتهما الأرض، وغاب معهما الموكلان بخدمتهما وحراستهما (الشيخ سلامة الهندي)، و(سيرون السائس).

وأقام السلطان وعسكره في الموضع الذي افتقد هؤلاء فيه، حيث بثَّ (١٨) رجاله في طلبهم، والتفتيش عنهم في جميع تلك النواحي، فلم يعثروا لهم على أثر، إلا أنهم في اليوم الثاني وجدوا جثة السائس ملقاة في منحدر ضيق بين جبلين.

فتحقق (جلال الدين) أن الأميرين اختطفوا مع خادميتهما، وأن المختطفين قتلوا (سيرون): لأنهم ضاقوا بمقاومته، وأمر رجاله بالبحث عنهم فيما حول الجبلين، وذهب معهم بنفسه، فلم يجدوا لهم أثراً، ولم يسمعوا عنهم خبراً، فكاد (جلال الدين) يموت من الغم، وامتنع عن الطعام، وعزم ألا يبرح (١٩) ذلك المكان حتى يقف على خبرهم.

وكانت الرسائل تتوالى عليه من نواب بلاده، يُخبرونه بأن (جنكيز خان) قد قطع بمجموعه النهر، وانقضوا على (بخاري) فدمروها، وانتقموا من أهلها شرَّ انتقام من جرَّاء ذلك الفريق البخاري الباسل (٢٠) الذي هاجم مؤخرة التتار في معركة (مرؤ) فكان سبب هزيمتهم والقضاء عليهم، وأنهم دالفون (٢١) إلى (سمرقند)، ففاعلوا بها ما فعلوا ببخاري.

ولكن (جلال الدين) كان في شغلٍ شاغلٍ عنهم من أمر (محمود) و(جهاد)، فكان يعرض أحياناً عن الرد، وأحياناً يعد بقرب المسيرة.

مرَّت الأيام على جلال الدين، وما يزيد حاله إلا سوءاً حتى يئس رجاله من رجوعه إلى صوابه. وكانت الأنباء تأتيهم بتقدم (جنكيز خان)، واستيلائه على المدينة بعد المدينة، يقتل فيها، وينهب ويدمر، حتى بلغ (تبريز)، فعزَّ عليهم أن يبقوا واقفين أمام سلطانهم المرزوء (٢٢) في عقله، الميئوس من حاله، حتى يطحنهم التتار وهم ينظرون. فتسللوا من حوله، ولحقوا بإخوانهم المجاهدين، (البخاريين) و(السمرقنديين)، وأمرؤا عليهم أحدهم، فلقوا طلائع التتار بين (تبريز) و(ديار بكر)، وقتلواهم قتلاً شديداً حتى هزموهم. وقوى أملهم في النصر بعد ذلك؛ إذ علموا أن (جنكيز خان) قد قفل راجعاً إلى بلاده لعلَّة شديدة أصابته، خشي منها أن تُودي (٢٣) بحياته فيموت في غير مسقط رأسه، وكان قد بلغه ما صار إليه خضمه الكبير من سوء الحال، فرأى أن القضاء عليه أيسر من أن يقتضى بقاءه في قيادة الجيش واحتمال العلة في ديار الغربية، ولكنه أصدر قبل رحيله أوامر صارمة إلى رجاله ألا يقتلوا (جلال الدين) إذا ظفروا به، وأن يجتهدوا في القبض عليه وحمله حياً إليه، ليرى رأيَه فيه وينتقم منه بنفسه.

(٢١) دالفون: متقدمون.

(٢٢) المرزوء: المصاب.

(٢٣) تُودي: تهلك وتقضى.

(١٨) بث: نشر.

(١٩) يبرح: يترك.

(٢٠) الباسل: الشجاع.

١٥ الأبطال المجاهدون لم يستطيعوا صدّ طوفان التتار:

وما لبث التتار أن أقبلوا أفواجًا يتدفقون تدفق السيل، **فَغَصَّ** (٢٤) بهم الفضاء، وأيقن المسلمون أن لا قبل لهم بملاقاتهم، ولكنهم تعاهدوا على الموت في سبيل الله، فوقفوا في وجه العدو، كأنهم البنيان المرصوص، فلم يستطع أن يتقدم شبرًا إلا على أشلاء الأبطال المجاهدين. سأل طوفان التتار بعد انكسار هذا السد المنيع، **فَطَمَّ** (٢٥) تلك البلاد والقرى، ولم يبق بينهم وبين الموضع الذي أقام فيه (جلال الدين) إلا بضعة فراسخ، ما لبثوا أن قطعوها فوت الرياح، وكانوا قد علموا أين يقيم، وليس كالتتار سرعة وحركة، ومهارة في التجسس واستطلاع أحوال العدو، فلهم في ذلك أمور تُشبهه **الخوارق** (٢٦).

١٦ بعض رجال (جلال الدين) لا يتخلون عنه في محنته:

وكان قد بقى مع (جلال الدين) عدد قليل من رجاله، عز عليهم أن يتخلوا عن سلطانهم العظيم، وهو في حاله تلك، وآثروا أن يحتملوه على علاته، ويكونوا معه إلى النهاية، وقد أزعجهم تقدم التتار، فتأهبوا لحماية مولاهم **والذّب** (٢٧) عنه، ريثما يعدون العدة للفرار به إلى حيث يجدون مأمنا. **بيد** (٢٨) أن التتار قد صاروا إذ ذاك أقرب إلى (جلال الدين) ورجالهم مما ظنوا، فما شعر هؤلاء إلا بالطلائع قد كادت تحيط به، فقاموا إلى السلطان وأركبوه الفرس ونجوا به منهم.

١٧ مطاردة التتار (لجلال الدين) واختفاؤه في بيت كُردِي:

وأفاق (جلال الدين) خلال ذلك، وأدرك ما هو فيه من خطر، فانطلق إلى **(أمد)**، فَمَنِعَ مِنْ دُخُولِهَا، وكبسه رجال من العدو وأحرقوا به دونها حتى لو شاءوا أن يقتلوه لأمكنهم ذلك؛ ولكنهم إنما أرادوا القبض عليه، فدفعهم عن نفسه وقتل جماعة منهم، وذّب عنه بعض خواص رجاله، وشاغلوا رجال العدو حتى خلص منهم. وطارده فرسان التتار، وكان لا يبارى في ركوب الخيل ففاتهم حتى دنا من **(ميا فارقين)** ليحتمي بملكها، فدخل قرية من قرأها، ولكن الفرسان لحقوه بها، **فَبَرَحَهَا** (٢٩) ودفع جواده فطار به منهم وصعد إلى جبل هناك يسكنه قوم من الأكراد يتخطفون الناس فلجأ إلى أحدهم، وقال له: أنا السلطان (جلال الدين) استبقني وأخف مكانى عن العدو الذي يطاردني، وسأجعلك ملكًا. فأخذه الكُردِي إلى بيته وأوصى امرأته بخدمته.

(٢٧) الذّب: الدفاع، المضاد: الهجوم.

(٢٨) بيد: غير.

(٢٩) برح: غادر.

(٢٤) غص: امتلأ.

(٢٥) طم: كثروهم.

(٢٦) الخوارق: الأمور الغريبة.

كردى يحاول قتل السلطان وجلال الدين يؤمنه:

وكان قد لمح (جلال الدين) كردى آخر موتور^(٣٠) منه فعرفه، وراه حين دخل البيت، فأخذ يترىصُ خلوا البيت من صاحبه، فلما خرج صاحب البيت لقضاء حاجة له جاء الكردى الموتور وبيده حربة فقال:

«لِمَ لا تقتلون هذا الخوارزمي؟» فقالت امرأة صاحب البيت: «لا سبيل إلى ذلك: فقد آمنه زوجي».

فقال الكردى: «لا أمان لهذا».

وكان (جلال الدين) رابط الجأش ولم ينبس ببنت شفة^(٣١)، وما أتم الكردى كلمته، حتى هزَّ حربه فسددَها بقوة إلى السلطان، فحاص^(٣٢) عنها فنشبت^(٣٣) في الجدار خلفه. وأسرع (جلال الدين) فانتزعها.

فأيقن الكردى أنه مقتول فقال له: «إن تقتلنى فقد شفيت نفيى باختطاف ولدك!».

كانت هذه الكلمة الصغيرة أشدَّ وقعًا على (جلال الدين) مما لو أصابت الحربة كبده، فقد زلزلت كيانه، وأفقدته تماسكه، وعجب الكردى إذ رأى خصمه واجمًا ينظر إليه نظرة ذاهلةً والحربة تضطرب في يده، وكان قد ملكه الخوف، وتوقع بين لحظة وأخرى أن تخرق الحربة جباب قلبه، ولم يكذ يصدق أنه حى بعد لولا أنه سمع بأذنيه قول السلطان يسأله بلهجة حزينة: «ماذا صنعت بهما يا هذا؟» قال الكردى وقد زال عنه بعض خوفه: «إنهما عندى ولن أسلمهما إليك حتى تؤمننى». قال (جلال الدين) وقد تهلل وجهه: «قد أمنتك».

«لا أصدق حتى ترمى هذه الحربة من يدك». فألقاها (جلال الدين) على الأرض قائلاً: «أذهب فأنتى بهما، وسوف أكافئك حين أقدر على مكافأتك».

فقصد الكردى جهة الباب وهو يتوقع أن الحربة ستدق في ظهره، حتى إذا أيقن أنه بمنجاة من بطش (جلال الدين) به، وقف خارج الباب وصاح: «أيها المخبول نجوت منك! لقد بعث ولدك لتجار الرقيق من الشام فلن يعودا إليك أبدًا».

الكردى ينجح في قتل السلطان:

وهم الكردى بالهرب لولا أن رأى السلطان يتمايل كالذى يداربه حتى سقط على جنبه وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله! لقد بيع (محمود) و(جهاذ) بيع الرقيق!».

فكر الكردى راجعًا، والتقط الحربة فطعن بها جنب (جلال الدين)، فنشبت بين ضلوعه ولم يحاول (جلال الدين) أن يدفع الكردى عن نفسه، بل استسلم له قائلاً: «هنيئًا لك يا كردى، لقد ظفرت برجل أعجز (جنكيز خان)! أجهز على وأرخنى من الحياة، فلا خير فيها بعد (محمود) و(جهاذ)».

وأراد الكردى نزع الحربة الناشبة^(٣٤) بين الضلوع فلم يستطع حتى ساعده (جلال الدين) على ذلك وهو يقول: «عجل بموتى، حنانيك^(٣٥)!».

وسدد الكردى الحربة إلى صدر (جلال الدين) فدقها فيه حتى نفذ سنانها إلى الأرض وهو يقول: «هأنذا أرختك من الحياة».

(٣٤) الناشبة: المتعلقة.

(٣٢) خاص: حاد، المضاد: واجه.

(٣٠) موتور: له ثأر.

(٣٥) حنانيك المراد: رحمة بي وعطفًا على.

(٣٣) فنشبت: فعلقت.

(٣١) لم ينبس ببنت شفة: لم يتفوه ولم يتكلم.

بأى كلمة.

اِخْتِطَافُ الطِّفْلِينِ «محمود» و«جهاد»



عرض الأحداث

١ قصةُ اِخْتِطَافِ الطِّفْلِينِ:

مات (جلال الدين) ولم يعلم عن (محمود) و(جهاد) إلا أنّهما اِخْتِطِفاً، فبيعا لأحد تجار الرقيق بالشام، أما كيف اِخْتِطِفا وماذا لقيا بعد ذلك، فبقى سرّاً مكتوماً عنه إلى الأبد، وتفصيل ذلك أنّ السلطان (جلال الدين) كان شديد الولع بالصّيد لا يتركه في إقامته ولا سفره. وقد بلغ به حُبُّ الصّيد أن ربما كان يَسْنَحُ له سِرْبٌ مِنَ الطّباء، أو حُمْرِ الوَحْشِ في طريقه وهو سائرٌ إلى غزوةٍ أو قتالٍ، فَيَنْفِثِلُ^(١) عَنْ جَيْشِهِ في أثرِ السّرْبِ، ولا يعودُ حتّى يُصِيبَ شيئاً منه فيأمرَ رجاله بحمله. وطالما نصحه خاصةً رجاله في ذلك وحذّروه مما قد ينتج عنه من الخطر على نفسه أو على جيشه. فكان يُسَلِّمُ لهم بصواب رأيهم ويعدّهم بالألّا يقع ذلك منه مرةً أخرى، ولكنّه لا يلبث أن يرى صيداً فينطلق في أثره. ويقول لهم في ذلك: إنه أمرٌ لا يقدر على دفعه، وقد سرى هذا الغرام بالصّيد منه إلى ابن أخته من طول ما صحبه الغلام حين كان يخرج لذلك في بلاد الهند. وكثيراً ما خرج (محمود) مع (سيرون) سائسه لاصطياد الأرنب البري خاصةً.

وفي أثناء عودة جلال الدين إلى بلاده للقاء (جنكيز خان) لم يشغله ذلك عن الانفتال عن عسكره. والجري وراء غزالٍ لاح له في أوّل الطريق، فحبسهم ساعةً ينتظرونه حتى رجع.

وبينما كان محمود وجهاد يسيران في مؤخرة الجيش إذ بصرًا عن يمينهما بأرنب بريّ منطلق بين الحشائش في أسفل الجبل، فساق (محمود) في طلبه، وانطلقت (جهاد) ورائه وجدّ معها الحارسان، ليُرْداهما عن ذلك حتّى غابوا جميعاً في مُنْعَطَفِ الجبل، ولم يكثر لهم أحدٌ من الجيش اتكالا على وجود الحارسين مع الأميرين، ولم يُخامر أحداً منهم شكٌّ في أنّ هؤلاء سيعودون ويلحقون بهم، وقد صار مألوفاً عندهم أن يتخلف الأميران عنهم قليلاً، فلا يلبثان أن يعدوا ورائهم حتّى يفوتاهم. أمّا ما فات الجيش كله علمه، فهو أنّ سبعةً من الأكراد الموثورين كانوا يسرون ورائه غير بعيدٍ منه، متوارين خلف الأشجار، أو خلف التلال يتطلعون إليه يقظين حذرين بحيث يرونه من حيث لا يراهم، قد لمحوا (محموداً) يطرّد وراء الأرنب ناحية الجبل. وخلفه (جهاد) والحارسان، فداروا من خلف الجبل، وطلّغوا عليه من ثنيته^(٢) فجأةً، فأحاطوا بهم، وتلقّف^(٣) أحدهم (محموداً) فأنزله من جواده وكمّ فاه، وقبض ثانياً على (جهاد) وصنع بها ما صنع رفيقه بـ(محمود)، وهذد الآخرون (الشيخ سلامة) و(سيرون) بقتلهما وقتل الأميرين معهما إذا صاح أحدهما بكلمة، أو أبديا حركةً للفرار، فهَمَّ (سيرون) بالاستغاثة، ولكنّ (الشيخ سلامة) أشار له أن يلزم الصمت وأن يطيع القوم، فاستسلما لهم خوفاً على حياة الأميرين، وطمعاً في أن يلحق بهم جماعةً من الجيش للبحث عنهم إذا استبطنوا عودتهم.

ولكنّ هذا لم يعجب عن الأشقياء، فجعلوا همهم الفرار بهم من ذلك الموضع بأسرع ما يمكنهم، فأردف اثنان منهم الصبيين وسبقاهم إلى الثنية، وتبعهما الآخرون يسوقون الحارسين بسيوفهم، حتّى إذا بلغوا السفح الآخر من الجبل بدت من قبيل (سيرون) محاولةً للهرب، فما أمهلهم أحدٌ أن طعنه برمحه في كبده حتّى أثبتته، فأخذه فرموا به في منحدرٍ ضيقٍ عن يمين الجبل، وأخذوا بعنان جواده، ومضوا في منعطفات الجبال، وسلكوا الأودية الضيقة، وما زالوا كذلك حتى رَقُوا بهم الجبل الذي لاذ به (جلال الدين) بعد ذلك، حين طارده التتار، فلقى حتفه على يد الكرديّ الموتور.

(٣) تلقف: أخذه بسرعة.

(٢) ثنية: طريق.

(١) ينفثل: ينصرف ويتحول.

٢ بَيْعُ الطِّفْلِينِ لِتُجَّارِ الرِّقِيقِ بِمِائَةِ دِينَارٍ، وَتَغْيِيرُ اسْمَيْهِمَا بِاسْمَيْنِ أُعْجَمِيَّيْنِ:

وكان يسكن هذا الجبل قومٌ من الأكراد **شطار** (٤)، يقطعون الطرق على القوافل فينهونها، وعلى المسافرين فيقتلونهم، ويخطفون أطفالهم ونساءهم فيبيعونهم لعملائهم من تجار الرقيق الذين كانوا **يرتادون** (٥) هذا الجبل لهذا الغرض الممقوت، فيحملهم هؤلاء إلى أسواق العراق ومصر والشام.

لم يُقم (محمود) و(جهاذ) **بجبل الشطار** إلا بضعة أيام، حتى جاء أحد تجار الرقيق إلى الجبل، فعرضوهما عليه بعد أن غيروا اسميهما العربيين باسمين أعجميين، فاشتراهما منهم بمائة دينار، أما (الشيخ سلامة) فإنه لما عرض على التاجر أبي أن يشتريه، وقال: ما صنع بهذا الشيخ الفاني؟ فاستاء الشيخ من ذلك، فقد كان يود أن يصحب الأميرين لعلهما يستأنسان به، أو يحتاجان إلى خدمته، ولو بعض حين، ريثما **يوطنان نفسيهما** (٦) على هذا الأسلوب الجديد من الحياة الشاقة التي تختلف عن حياتهما السابقة كل الاختلاف، ولما يئس من مرافقتيهما لأن التاجر أرى شراءه، حزن لذلك أشد الحزن، إلا أنه تعلل بأنه مهمًا رافقهما فلا بد أن يفترق عنهما يومًا في سوق **النخاسة** (٧)، فسلم أمرهما إلى الله.

٣ نَصَاحُ (الشيخ سلامة) لهما قبل أن يفارقهما:

وأراد أن يزودهما بنصيحة تنفعهما في حياتهما الجديدة، فتوسل إلى البائعين؛ ليأذنوا له أن ينفرد بهما، كي يودعهما، ويسدى إليهما نصائح تنفعهما، فأذنوا له بذلك، وكان مما يسر له موافقتهم أن (محمودًا) كان لا يكف عن التبرم والشكوى ولا يفتأ يلعن خاطفيه ويسبهم ويعلن أنه ابن أخت السلطان (جلال الدين)، وأن (جهاذ) ابنته، وأن من باعهما أو اشتراهما فهو متعرض لنقمة السلطان **وسطوته** (٨)، وكان يضرب بيده أو يركل برجله أي واحدٍ من هؤلاء يقترب منه، فيعاقبونه بالضرب الموجه ليمتنع عن ذلك فلا يمتنع، وأن (جهاذ) كانت توصل البكاء لا **يرقأ** (٩) لها دمع، ولا يسوغ لها طعامًا، حتى تحل جسمها، واصفر وجهها، وخشى عليها من جرأ ذلك، فقال لهما الشيخ إنه لو خلا بهما فتلطّف في نصيحتهما لربما استطاع أن **يفشأ** (١٠) لوعتهما، ويهدئ ثورتيهما، ويصرفهما عما هما فيه من البكاء وعدم الانقياد، فكان في ذلك مصلحتهما ومصلحتهم ومصلحة التاجر، وكان يقول لهم ذلك بغاية الحكمة **والرزانة** (١١)، فاستنصحوه واستصوبوا رأيه، وقبلوا طلبه.

ولما خلا بهما قال لهما بصوت يفيض رقةً وحنانًا، ويتنازعه الحزن والتجلد: «يا أميرَي الحبيبين، قد رأيتهما ما نحن فيه من البلاء والمكروه، وإنّ علينا أن نلقاه بالصبر حتى يأتينا الفرج من الله، وإنه لقریب إن شاء الله، إنكما حديثا السنن، طريًا العود، ولكن الله قد رزقكما من الذكاء والفطنة ما تفوقان به على كثير ممن هم أكبر منكما سنًا، أنتما من أولاد الملوك، فجدير بكما أن تصبرا صبر الملوك، إن الجزع لا يفيدكما شيئًا، بل يزيد بلاءكما وشقاءكما؛ وربما يسلمكما إلى مرض يودي بحياتكما، فيسق ذلك على مولاى السلطان (جلال الدين) حين يطلبكما بعد أن ينتهى من قتال التتار فلا يجدكما. يا ولدى العزيزين، إن هؤلاء اللصوص اختطفوكما، فباعوكما لهذا التاجر، وإن مصلحته أن تكونا معه بخير حتى يبيعكما بثمن يرضيه. فاسمعا له وأطيعاه؛ ليحسن معاملتكم، ولا يتعرض لكم بسب أو إهانة، وإنه يعرف قدركما ولا يجهل قيمتكم، وسيطلب بكما

(٤) شطار: خبيثاء.

(٧) النخاسة: تجارة الرقيق.

(١٠) يفتأ: يكسر ويسكن.

(٥) يرتادون: يترددون.

(٨) سطوته: قوته.

(١١) الرزانة: السكون والثبات والوقار.

(٦) يوطنان نفسيهما: يتعودان ويحتملان.

(٩) يرقأ: ينقطع.

ثمنًا كبيرًا فلا يتصدى لشرائكُما إلا السَّراةُ^(١٢) والأمرءُ ومن فوقهم من الملوك والخلفاء حيث تعيشان في قصورهم عيشةً صالحةً، حتى تنقضى هذه المحنة القصيرة إن شاء الله. إن مولاي السلطان (جلال الدين) سينتصر على التتار بإذن الله، وسأكتبُ إليه بأمرِكُما فسيبعثُ في طلبِكُما من أطراف الأرض، وسترجعان إليه فيفرحُ بكما وتفرحان به. ولكي يسهلَ عليه الاهتداءُ إليكُما، عليكُما أن تُصغيا لما أقول، إياكُما أن تقولوا لأحدٍ إنكُما من أولادِ (جلال الدين)، أكتما هذه الحقيقة عن كلِّ أحدٍ؛ لأنَّ هذه الحقيقة قد تُسببُ لكما متاعبَ أنتما في غنى عنها، وقد تحولَ دونَ سهولةِ الاهتداءِ إليكُما حينَ يسعى في طلبِكُما مولاي السلطان، إذ قد يضمنُ بكُما من تكوانٍ في حيازته، فيبالغُ في إخفاكُما ويحولُ بينكُما وبينَ وسائلِ الإعلان عن مقرِّكُما، إمَّا بالكتابةِ إلى مولاي السلطان أو الاتِّصالِ بأحدِ معارفه أو رُسله، إمَّا إذا بقِيَ هذا السرُّ مكتومًا حتى تحينَ ساعةُ الطلبِ، فسيكونُ يسيرًا عليكُما أن تهدياهُ إلى مقرِّكُما، حيثُ يأخذكُما إليه، والحمدُ لله قد كفانا هؤلاء اللصوصُ مؤنةَ تغييرِ اسميَكُما، فليعتدِ كلاكُما اسمَه الجديدَ، ولا يجدُ في ذلك حرجًا؛ فإنه اسمٌ مؤقتٌ ينتهي أجلُه حينَ تنقشعُ هذه الغمامةُ، ويومئذٍ يموتُ المملوكُ (قُطن)، وتموتُ المملوكَةُ (جُنان)، ويعودُ الأميرُ (محمود) بنُ (ممدود) والأميرةُ (جهاذ) بنتُ السلطانِ (جلال الدين) إلى القصرِ الملِكِيِّ بـ (غزنة)، حيثُ يرثان ملكَ آل (خوارزم شاه)، بعدَ عُمرِ مديدٍ لمولاي السلطان. قال (محمود): «هيهاتَ أن يكونَ المملوكُ ملكًا، إنِّي لأريدُ الملكَ، وحسبي أن أعودَ أنا و(جهاذ) إلى خالي، وأقاتلَ التتارَ معه». فقال الشيخُ: «اذكرُ قصَّةَ يوسفَ الصِّديقِ - عليه السلامُ - كيفَ بيعَ بدراهمَ معدودةٍ لعزيزِ مصرَ. فما لبثَ أن صارَ ملكًا على مصرَ، وهكذا تُحدِّثني نفيي أنَّك ستكونُ كيوسفَ، غيرَ أنَّ يوسفَ كان من بيتِ النبوةِ، وأنتَ من بيتِ الملِكِ، يا ليتني أعيشُ حتى أراكُما تملكانِ البلادَ! ولكني شيخٌ كبيرٌ لا أحسبُ عُمرِي يمتدُّ بي إلى ذلكَ العهدِ السعيدِ». وكانت (جهاذ) تُصغى لحديثِ الشيخِ بكلِّ جوارحها^(١٣)، وقد كففت^(١٤) دمعها، واطمأنتَ إلى صدقِ ما يقولُ، فما قال الشيخُ كلمتهُ هذه حتى قالتَ له: «كلا ستكونُ معنا دائمًا ولنَّ تفارقنا».

فقال الشيخُ: «يسمعُ الله منك يا أميري الصغيرة، إنِّي سأبقى هنا؛ لأنَّ التاجرَ أبي أن يشتريني لكبرِ سنِّي، ولكني سألقاكُما قريبًا إن شاء الله عندَ مولاي (جلال الدين)، فلا أفرقكُما حتى الموتِ، ولعلَّ بقائِي هنا أنفعُ لنا، إذ أكونُ قريبًا من بلادنا، فأكتبُ السلطانَ بأمرِكُما، وأطمئنُه بوجودكُما».

٤ (الشيخُ سلامة) يودعُ الطفلين بعدَ أن أثرتَ فيهما نصحُهُ:

وأحسَّ الشيخُ بأن مدة الانفرادِ بالصبيين قد طالَّت، وخبى من غَضَبِ الجماعةِ عليه، فأعادَ عليهما مُجملَ حديثه السابقِ تثبيتًا له في أذهانهما. وأكَّدَ عليهما ألاَّ يبوحا بحقيقةِ حالهما لأحدٍ، وأنَّ يُطيعا أمرَ مولاهما؛ ليُحسِنَ معامَلتَهُما، ثم دنا منهما فضمَّهما إلى صدره وهو يقولُ: «أستودعُكُما الله^(١٥) حافظَ الودائعِ»، فطفقَا يبكيانِ ويُقبَّلانِ رأسه، ثم قامَ بعدَ أن هدَّأهُما وجفَّفَ دموعَهُما، وسارَ بهما إلى مجلسِ القومِ، حيثُ ينتظرُهُما التاجرُ ليمضِيَ بهما فقالَ له: «يا سيدي، إنِّي قد أوصيتُهُما بطاعتِكِ فلن يُخالِفَا أمرَكِ، فأوصيكُ بهما خيرًا، إنَّهما حديثا السنُّ، قليلا التجارِبِ، فارقُ بهما وأحسِنُ سياستَهُما، باركُ الله لك فيهما وباركُ لهُما فيكِ».

(١٤) كففت: منعت.

(١٢) السَّراة: الشرفاء.

(١٥) أستودعكُما الله: يحفظكُما الله.

(١٣) جوارحها: أعضاؤها، جمع: جَارِحَة.

وَعَجِبَ الْقَوْمُ إِذْ رَأَوْا الْعُلَامَ قَدْ لَانَ جَانِبُهُ، وَانْكَسَرَتْ شَكِيمَتُهُ^(١٦)، بَعْدَ أَنْ كَانَ عَصِيًّا عَنِيدًا، وَالْجَارِيَةَ قَدْ سَكَنَ جَاشُهَا^(١٧) وَاطْمَأَنَّ بِأَلْهَا، فَتَبِعَا مَوْلَاهُمَا طَائِعِينَ، غَيْرَ مُتَمَرِّدِينَ وَلَا مُتَدَمِّرِينَ، غَيْرَ أَنَّهُمَا لَمَّا ارْتَحَلَ التَّاجِرُ بِهِمَا عَلَى بَغَالِهِ، غَامَتَ عِيُونُهُمَا بِالْدَمْعِ، وَالتَفَتَا إِلَى جِهَةِ الشَّيْخِ وَجَعَلَا يُلَوِّحَانِ لَهُ بِأَيْدِيهِمَا حَتَّى اخْتَفَيَا.

٥ مَصِيرُ (الشَّيْخِ سَلَامَةَ) وَذَكَرِيَّاتُهُ الْأَلِيمَةُ:

وَاخْتَلَفَ الْقَوْمُ فِي أَمْرِ الشَّيْخِ مَاذَا يَصْنَعُونَ بِهِ، فَمِنْ قَائِلٍ: نُطَلِّقُهُ يَمْضِي حَيْثُ يَشَاءُ. وَمِنْ قَائِلٍ: نَسْتَحْدِمُهُ وَنَدْعُهُ يَحْتَضِبُ لَنَا. حَتَّى اتَّفَقُوا آخِرَ الْأَمْرِ عَلَى أَنْ يُبْقُوهُ عِنْدَهُمْ حَتَّى يَبِيعُوهُ لَتَّاجِرٍ آخَرَ قَدْ يَرِغِبُ فِي شِرَائِهِ.

وَمَا أَوْى (الشَّيْخُ سَلَامَةَ) إِلَى مَحْبِسِهِ، حَتَّى انْكَبَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَجَعَلَ يَبْكِي بُكَاءً مَرًّا، وَهَاجَتْ شُجُونُهُ، فَتَذَكَّرَ أَيَّامَهُ فِي خِدْمَةِ مَوْلَاهُ الْكَبِيرِ، السُّلْطَانِ (خُوَارِزْمِ شَاهِ)، وَخِدْمَةِ السُّلْطَانِ (جَلَالِ الدِّينِ) مِنْ بَعْدِهِ، وَمَا شَهِدَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالنَّكَبَاتِ الَّتِي حَلَّتْ بِنَيْتِهِمَا، وَكَانَ آخِرَهَا هَذَا الَّذِي نَزَلَ بِبَقِيَّةِ ذَلِكَ الْبَيْتِ الْمَجِيدِ، وَأَفْضَى بِهِدَيْنِ الْأَمِيرِينَ الصَّغِيرِينَ إِلَى ذُلِّ الْعَبُودِيَّةِ وَهَوَانِ الرَّقِّ، حَيْثُ يُبَاعَانِ فِي أَسْوَاقِ النَّخَاسَةِ وَيَتَنَقَّلَانِ فِي أَيْدِي الْمَالِكِينَ.

٦ مَا زَادَ الشَّيْخَ (سَلَامَةَ) حَسْرَةً وَأَلْمًا:

وَمِمَّا زَادَهُ أَلْمًا، وَمَلَأَهُ حَسْرَةً وَكَمَدًا^(١٨) أَنَّهُ - وَهُوَ خَادِمُهُمَا الْأَمِينُ - قَدْ اسْتَعْمَلَ نَفُوزَهُ عَلَيْهِمَا، وَثَقَّتَهُمَا بِهِ وَاطْمَأَنَّأَنَّهُمَا إِلَيْهِ، فِي حَمْلِهِمَا عَلَى الرِّضَاءِ بِهَذَا الْهَوَانِ، وَاسْتَنْزَالِهِمَا عَنْ إِيْمَانِهِمَا وَعَزَّتِهِمَا، لِيُخْضَعَا خُضُوعَ الْعَبِيدِ لِمَنْ اشْتَرَاهُمَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، وَأَنَّهُ اسْتَعْلَلَ سَدَّاجَتَهُمَا^(١٩) وَسَلَامَةَ نَيْتَهُمَا وَقَلَّةَ بَصَرِهِمَا بِالْحَيَاةِ، فَخَدَعَهُمَا عَنْ حَقِيقَةِ حَالِهِمَا، وَكُنْهِ^(٢٠) مَصِيرِهِمَا، وَأَوْهَمَهُمَا ضَلَّةً وَكُذْبًا أَنَّ هَذِهِ مِخْنَةٌ طَارِئَةٌ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَزُولَ، وَغَمَّةٌ عَارِضَةٌ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَنْقَشَعَ.

٧ لَا قِيَمَةَ لِلْحَيَاةِ بَدُونِ حُرِّيَّةٍ:

نَعَمْ، إِنَّهُ أَشْفَقَ عَلَيْهِمَا مِنْ إِهَانَةِ الْمَوْلَى^(٢١) وَقَسْوَةِ الْمَالِكِ، وَلَمْ يَرِدْ بِهِمَا إِلَّا الْخَيْرَ، إِذْ نَصَحَهُمَا بِالْخُضُوعِ وَحُسْنِ الطَّاعَةِ، وَلَكِنْ عَلَامٌ هَذَا كُلُّهُ؟ وَفِيمَ هَذَا الْحِرْصِ عَلَى الْبَقَاءِ؟ وَمَا قِيَمَةُ الْحَيَاةِ إِذَا فَقَدَ الْمَرْءُ حُرِّيَّتَهُ وَشَرْفَهُ، وَصَارَ سِلْعَةً تُبَاعُ وَتُشْتَرَى؟ فَكَيْفَ بِأَمِيرٍ وَأَمِيرَةٍ نَسَا فِي أَكْبَرِ بِيُوتِ الْمُلْكِ، وَتَقَلَّبَا فِي أُعْطَافِ النُّعْمَةِ وَالْعَزِّ، يَرَادُ بِهِمَا أَنْ يَرْضِيَا بِحَيَاةِ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ، حَيْثُ يَلْقِيَانِ صُنُوفَ الذُّلِّ وَالْوَانِ الْإِمْتِهَانِ، وَيُلْقَى إِلَيْهِمَا أَنَّ فِي ذَلِكَ خَيْرَهُمَا وَسَعَادَتَهُمَا لِنَلَا يَأْتِيَهُمَا الْمَوْتُ، فَيُقَطَّعَ عَنْهُمَا فُتَاتُ الْمَوَائِدِ وَفُضُولُ الشَّرَابِ!

٨ أَخْلَامٌ خَادِعَةٌ، وَمَصِيرٌ مَجْهُولٌ:

إِنَّهُمَا ذَهَبَا رَاضِيَيْنِ لِمَا خَلَبَهُمَا^(٢٢) مِنْ سِحْرِ حَدِيثِهِ، آمِلَيْنِ أَنْ يَعُودَا إِلَى كَنْفِ السُّلْطَانِ (جَلَالِ الدِّينِ) بَعْدَ بُرْهَةٍ قَصِيرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، فَمَاذَا يَكُونُ حَالُهُمَا إِذَا تَبَدَّدَ مِنْهُمَا هَذَا الْحُلْمُ الْجَمِيلُ، وَعَرَفَا الْحَقِيقَةَ الْمُرَّةَ: أَنْ لَا خَلَاصَ مِنْ حَيَاةِ الرَّقِّ، وَلَا فِكَالٍ لَهُمَا مِنْ قَيْدِ الْإِسْتِعْبَادِ؟ وَأَنْكَى^(٢٣) مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَذَيْنِ الْأَمِيرِينَ عَاشَا أَلْيَقَيْنِ مُتَلَاذِمَيْنِ مِنْذُ الطُّفُولَةِ، لَمْ يَغِبْ

(١٦) شكيمته المراد: قوته، الجمع: شكائم. (١٧) سكن جاشها: هدأت ثورتها. (١٨) كمداً: حزناً شديداً. (١٩) سداجتتهما: عدم خبرتهما. (٢٠) كنه: حقيقة. (٢١) المولى: السيد. (٢٢) خلبتهما: خدعتهما. (٢٣) أنكى: أشد وأفظع.

أحدهما يوماً واحداً عن الآخر، ولا يكادُ يصبرُ ساعةً عنه، وقد ظننا حينَ ذهابنا مع النَّحاس أنَّهما سيَظْلانَ كما كانا رفيقين مُتلازمين، ولم يَخْطُرْ ببالِهما قَطُّ أنَّ أسواقَ الرَّقيقِ قد تُفَرِّقُ بينهما، فيقعُ هذا في يدِ رَجُلٍ من المشرق، وتباعُ هذه لرجلٍ من المغرب، وكانا يشْعُرانِ من طُولِ تلازمهما أنَّهما شخصان لا يفترقان أبداً وأنَّهما سيعيشانِ معاً ويموتانِ معاً، وما دار **بخلديهما** (٢٤) أنَّ أحداً مِنَ الناسِ مهما بلغَ من الحَوْلِ والقُوَّةِ، ومهما بلغَ في تعذيبهما واضطهادهما يُمكنُ أن يفكَّرَ في إبعادِ أحدهما عن الآخر، فهذا شيءٌ لا سبيلَ إليه، وما عَلِمَا أن تُجَارَ الرَّقيقِ لا يرعونَ لمثلِ هذه الألفةِ عهداً، ولا يُقيمونَ لهذه الصُّحبةِ الطويلةِ والتعاطفِ الأخويِّ وزناً، وإنما يعتبرونَ المالَ وحده، ويميلونَ معَ الريحِ حيثُ تميلُ. فإن قُدِّرَ لهما أن تضمَّهما يمينُ مالكٍ واحدٍ، كان ذلك اتفاقاً غريباً وصدفةً غيرَ مقصودةٍ، لا رعايةَ لهما ولا إبقاءً على اجتماعِ شملهما.

٩ (الشيخ سلامة) يموتُ حزناً على الطفلين:

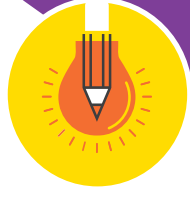
جاشت (٢٥) هذه الخواطرُ كُلُّها بقلبِ الشيخِ المكلومِ، فَشَعَرَ بِهِمْ عَظِيمٌ يَسُدُّ ما بينَ جِوانِحِهِ ويأخذُ بأَكْظَامِهِ، فَمَلَّ الحياةَ، وتميَّ لو **اخترمه** (٢٦) الموتُ، فأراحه من هُمومِهِ وآلامِهِ، وبقيَ أياماً لا يدُوقُ الطعامَ الَّذي يُقدِّمُ إليه، حتَّى وهنتُ قوتهُ، وساءَ حاله، وأصابتهُ حمى شديدةٌ باتت يهذي منها طَوالَ ليله. حتى وجدوه في الصِّباحِ جَسَداً هامِداً لا حراكَ به، فكفَّنوه في ثيابه، وأهالوا عليه الترابَ.

ماتَ الشيخُ (سلامةُ الهنديُّ)، ولم يدُرْ بخلديه وهو ينعَى نَفْسَهُ في ذلكَ الجبلِ النَّازِحِ أن مولاهُ ووليُّ نِعْمَتِهِ السلطانَ (جلالَ الدين) بن (خوارزم شاه) سيلقى حتفَه في ذلكَ الجبلِ بعد بضعةِ أيامٍ من وفاته ويُدْفَنُ على مَرَمَى حَجَرٍ من قَبْرِه، في تُربةٍ كُلُّ قاطنِها عنهما غريبٌ، وليس لهما بينهم من صديقٍ أو حبيبٍ.

(٢٦) اخترمه: أخذه.

(٢٥) جاشت: اضطربت.

(٢٤) خلدتهما: بالهما ونفسهما.



عرض الأحداث

١ تاجر الرقيق يعامل الظلمين بلطف:

أما (قطر) و(جُلنار) فقد وصلَ بهما التاجرُ إلى (حَلَبَ)، فأنزَلهما معه في بيتٍ بعضِ معارفه، وكَسَاهُما ثيابًا حَسَنَةً وأراحهما، ولمْ يُكَلِّفهما أَىَّ عَمَلٍ يَقومان به، ولمْ يَحْبِسْهُما في المنزلِ بل تَرَكَهُما يَجِئانِ ويذهبانِ كما شاءا في سَاحةِ الحَيِّ. وكانَ لطيفًا مَعَهُما طَوالَ الطريقِ، يُقدِّمُ لهما الطَعامَ، ويُساعدُهُما في الرُكوبِ والنزولِ، وَيُجَادِبُهُما^(١) أطرافَ الحديثِ ويُداعِبُهُما، ويسلِّيُهُما بالقِصَصِ والنَّوادرِ باللُغَةِ الفارِسيَّةِ التي كانَ يُجيدُها إجادَةً حَسَنَةً، حتى مالَ الصَّبِيانِ إليه، وخَفَّ عنهُما ما كانا يجِدانِ مِنَ الوَحْشَةِ والقَلَقِ، ونظرا إليه كأنه صديقٌ لهما، لا مالِكٌ اشتراهُما بالمالِ.

٢ معاملة (بيبرس) بقسوة لتمرده:

وكانَ لِلتَّاجِرِ مملوكٌ ثالثٌ في سَنَّهُما، يُدعى: (بيبرس)، قد أَحْضَرَهُ إليه أحدُ وكلائِهِ، فَضَمَّهُ إليهِما، ولكنَّهُ كانَ يُعاملُهُ معاملةً قاسيةً، ويضربه ويحبسه في المنزلِ لا يَبْرَحُهُ مِثْلُهُما، فَعَجِبًا في أوَّلِ الأمرِ من خُلُقِ الرَّجُلِ؛ كيفَ يرفُقُ بهما ذلكَ الرقيقُ، ثم يقسو هذه القسوةَ على الغلامِ؟ ولكنَّ سُرْعانَ ما زالَ عَجِبُهُما حينَ عَرَفَا (بيبرس) وتَمَرَّدَهُ على مَوْلَاهُ، وسوءَ خُلُقِهِ مَعَهُ، وميلَهُ دائِمًا لِلإِباقي^(٢) منه، فأدركا حينئذٍ أن مَوْلَاهُما حَكِيمٌ في سياستِهِ، يُعاملُ كَلًّا بما يليقُ به مِنَ الشَّدَّةِ واللينِ. على أَنَّهُما مَعَ ذلكَ لمْ يخلُوا مِنَ الرِّقَّةِ لِهَذَا الغلامِ القَبْجاقِي الأَشْقَرِ، ذِي العيونِ الزَّرِقِ التي تنمُّ عن الحيلةِ والمكرِ، فكانَ (قطر) يُحسِنُ إليه على غيرِ علمِ هؤلاءِ، ويقتطعُ له شيئًا من إِدامِهِ^(٣) وخالوا فيقدمُهُ له فيلتهُمهُ الصبى التهامًا، فنشأتُ مِنْ جِراءِ ذلكَ صداقةٌ متينةٌ بينهما، أما (جُلنار) فكانتِ مع شَفَقَتِها عليه تشعرُ بنفورٍ شديدٍ منه، وتنتقَى نظراتِهِ الحادَّةَ كأنها سهامٌ ماضيةٌ لا تقوى على احتمالِها عيناها الوديعتانِ.

٣ سوق الرقيق في (حَلَبَ):

وما هِيَ إلا أيامٌ قلائِلٌ حتى حلَّ موعدُ السوقِ (بِحَلَبَ)، وكانَ يومَ الأربِعاءِ من كلِّ أسبوعٍ، فَتَقاطَر^(٤) إليه النَّاسُ مِنْ سائرِ مَدَنِ الشَّامِ وقُراه؛ ليشهدوا مَنافعَ لَهمْ ويبيِعُوا وَيَبْتاعُوا، وكانَ يُقامُ في رَحْبَةٍ واسِعَةٍ في طرفِ مِنَ أطرافِ المَدِينَةِ تُنصبُ فيها الخيامُ، وتضربُ فيها السُّرادِقَاتُ العَظيمةُ، وتقسَّمُ أقسامًا: فَقسَّمُ لِلحُبُوبِ والغِلالِ، وقِسْمٌ للأقمِشةِ والمَلابِسِ مِنَ الصُّوفِ والقُطنِ والكتَّانِ والحريِّ، وقِسْمٌ لِلأنيَّةِ والسُّرُجِ وسائرِ أدواتِ المنازلِ، وقِسْمٌ لِلأدويةِ والعُطُورِ والأدْهنةِ والمقوِّياتِ، وقِسْمٌ لِلجَوارِي والعبيدِ، وقِسْمٌ لِلخِيُولِ والمواشِي، إلى آخِرِ ما هُنالكِ، وكانَ كُلُّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الأقسامِ يُسمَّى سوقًا، فَسُوقُ الغِلالِ، وسُوقُ البُرِّ^(٥) وسُوقُ الرِّقِيقِ، وسُوقُ الخيلِ، وَهَلُمَّ جِراءَ^(٦).

(١) يجادبهما: يجادتهما.

(٢) الإباقي: الهروب.

(٣) إدامه: نوع من الثياب.

(٤) تقاطر الناس: تتابعوا كأجزاء القطار.

(٥) البر: نوع من الثياب.

(٦) هلم جراً: تعبير يدل على التتابع.

ولما أصبح يوم الأربعاء أمر التاجر مواليه الثلاثة فاغتسلوا وكسأهم، وأصلح شعورهم وطيبهم، ثم مَضَى بهم إلى السوق الكبيرة، أما (بيبرس) فقد أمسك التاجر بيده يجره جراً وهو يسبُّه ويلعنه، وأما (قطن) و(جلنار) فقد أطلقهما، فساراً فرحين، وما يظنان إلا أنهما ذاهبان لشهود هذا الموسم العظيم، والتفرج على ما فيه، حتى بلغ بهم سوق الرقيق فإذا سرادات عظيمة مملوءة بالجوارى والغلمان من بيض وسود وألوان بين ذلك شتى، وقد جلسوا على الحضر جماعات منفردة وقام على كل جماعة منهم الدلال الذي عهد إليه بييعهما، فيأخذ الدلال أحدهم ويوقفه على دكة منصوبة أمامه، وينادي عليه بين الذين حَضَرُوا للابتياح بكلمات مسجوعة أو منظومة في الإشادة بمحاسن المعروض للتزغيب في شرائه. وهؤلاء السماسرة يفتنون في ذلك افتناناً عجيباً، ويستعين كثير منهم بالشعراء لينظموا لهم مقطوعات في أوصاف الجوارى والغلمان ونعوتهم المختلفة فينادون بها على من يعرضون من الرقيق بحسب ما يقتضيه المقام.

٤ (قطن) و(جلنار) في دُهول وهما في سوق الرقيق:

وما إن سلم النحاس مواليه الثلاثة إلى أحد الدالين حتى جعل يقلبهم، ويصعد النظر فيهم، كأنه يختبر نعوتهم، ويتبين سماتهم، ثم كتب أسماءهم في دفتره، وتحت كل اسم منها صفته وسنه وأصله، وأقل قيمة يطلبها صاحبه فيه، ثم دفعهم إلى الحصر فقعدوا عليه بين غيرهم من الرقيق الذي عنده.

أما (بيبرس) فقعد مطمئناً لا أثر عليه من امتعاض أو اكتئاب، وجعل يجيل نظراته^(٧) الحادة فيمن حوله من الناس، فإذا رأى عبداً أسوداً، أو جارية شوهاء^(٨) أو غلاماً قبيح الخلق، ضحك عليه، وأشار ل(قطن) إليه غير مكترث بالدلال الذي كان يحده^(٩) بالنظر مرة بعد مرة، ويقطب له ليردعه بذلك عن عمله، فما يجيبه (بيبرس) بغير إخراج لسانه، وتحريك حاجبيه. وأما (قطن) و(جلنار) فقد غلبهما الوجوم^(١٠)، وأصبحا لا يعيان شيئاً مما حولهما، وظنا نفسيهما في منام لا في حقيقة، لولا أنهما تذكرتا ما وقع لهما من احتطاف اللصوص، ثم بيعهما إياهما للنحاس، وما زالا بعد في ريب من أن يكون التاجر الواقف أمامهما بعد إذ سلمهما للدلال، هو عين ذلك الرجل الذي أحسن إليهما منذ يومهما، وأظهر لهما ذلك البر وتلك الرعاية، وترقق الدمع في مآقيهما^(١١) فكانا يمسخانه بطرف ردايهما مسارقة^(١٢)، وما أمسك دمعهما أن ينسكب إلا حياؤهما من أن يبدو عليهما الضعف بين من حولهما من الناس، أو يظهر أقل جلدًا واحتمالاً من زميلهما الضاحك العابث.

٥ (بيبرس) يباع بمائة دينار لتاجر مصري:

ومرت ساعات طويلة شهدا كيف تُعرض الإماء والعبيد والغلمان، وينادي عليهم، ويقلبهم الراغبون في الشراء ظهراً ليطن، لا فرق بينهم وبين السلع، فينفق من ينفق منهم، فيمضي لسبيله مع من اشتراه، ويبور من يبور، فيعاد إلى مكانه في الحصر كاسف البال^(١٣)، حتى جاء دورهما ودور صاحبهما فبدأ (بيبرس)، ونصب على المنصة وهو يلتفت يمينا وشمالاً، وقد جرد من ثيابه إلا ما يستر وسطه، فبدأ يابس الساقين، بارز الصدر، مقول الساعدين، فنادى المنادي وهو يضرب على صدره وظهره:

(١١) مآق. جمع: مؤق وهو مؤخر العين من جهة الأنف. المراد: العيون.

(١٢) مسارقة: في خفية.

(١٣) كاسف البال: حزينا يائسا.

(٧) يجيل نظراته: يدير النظر فيمن حوله.

(٨) شوهاء: قبيحة.

(٩) يحده: ينظر إليه باستنكار.

(١٠) الوجوم: شدة الحزن.

مَنْ لَلْفَتَى الْقَبْجَاقِي
يَنْفَعُ فِي الْجَمَّاقِ؟
يَذْفَعُ عَنْ مَوْلَاهُ
كَيْدَ الَّذِي عَادَاهُ
سُتْطَلِعُ الْأَيَّامُ
إِنْ صَحَّ ظَنِّي فِيهِ
مُعَامِرًا مَقْدَامًا
يُعَزُّ مَنْ يُؤْوِيهِ
يَهْزَأُ بِالْأَهْـوَالِ
فِي سَاحَةِ النَّزَالِ

فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ يَظْهَرُ مِنْ سَخْنَائِهِ^(١٤) وَزِيَّهِ أَنَّهُ تَاجِرٌ مِنْ مِصْرَ، فَاشْتَرَاهُ وَنَقَدَ الدَّلَالَ ثَمَنَهُ (مائة دينار).

وكان ما ليكه النَّخَّاسُ لا يطمعُ في أكثرَ من خمسينَ دينارًا، ولكنَّ الدَّلَالَ لما لحظَ تطلُّعَ التَّاجِرِ المِصْرِيِّ إليه وَشِدَّةَ رَغْبَتِهِ فيه، جَعَلَ يرفعُ قيمته حتى بلغَ بها مائةً، فكان فوقَ أُجْرَةِ الدَّلَالَةِ نِصْفُ ما زادَ من قيمته على ما حدَّده المالكُ، أي خمسةَ وعشرونَ دينارًا. وَقَدْ فَرِحَ الدَّلَالُ بهذه الصَّفقةِ فرحًا كبيرًا جعله يبالغُ في مُلاطفةِ التَّاجِرِ المِصْرِيِّ ويقولُ له: «خُذْهُ إِلَيْكَ.. بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهِ، وَحَافِظْ عَلَى هَذَا الغلامِ الحَبِيثِ، فَإِنَّهُ شَرَسَ أَبَاقٍ».

ولم يكنْ (بيبرس) يَعْرِفُ العَرَبِيَّةَ إِلَّا قَلِيلًا، ولكنَّهُ فهمَ مِنْ حَرَكَاتِ الدَّلَالِ وإِشَارَاتِ يَدِهِ، وَنَبْرَاتِ صَوْتِهِ، معنَى الكلامِ الذي نادى به عليه، فوقفَ حينَ وقفَ على الدكةِ مُختلًا بِنَفْسِهِ، مُدِلًّا^(١٥) بِقُوَّتِهِ، وَنَزَلَ حينَ نَزَلَ منها ومَشَى إلى مَوْلَاهُ المِصْرِيِّ مَرْهُوًّا يَكادُ يَحْرِقُ الأَرْضَ تِيهًا^(١٦)، ولم يَمُضِ المِصْرِيُّ بعدَ أَنْ اشْتَرَى (بيبرس)، بل عَادَ إلى مَكَانِهِ الأَوَّلِ وَلزَمَهُ، يَنْظُرُ إلى الصَّبِيِّينِ الوَضِيِّينِ^(١٧) كأنه يَرَعِبُ في شِرَائِهِمَا أيضًا، أو يُريدُ أَنْ يَرَى كَمْ يَبْلُغُ ثَمَنُهُمَا.

شعورُ التعاطفِ بينَ الطِّفْلِينِ وتاجرِ دِمَشقِ:

وأخذَ الزَّحَامُ يشْتدُّ على حَلْقَةِ الدَّلَالِ حينَما تهيأَ لعرضِهما، وكان في الحاضِرِينَ رجلٌ دِمَشقِيٌّ جَمِيلُ الهيئَةِ، تَبَدُّو عَليَّهِ مَخائِلُ^(١٨) النِّعْمَةِ واليَسَارِ^(١٩)، قد وَحَطَهُ^(٢٠) الشَّيْبُ في رَأْسِهِ ولحيتِهِ، فزادَهُ وَقَارًا^(٢١) وهيبَةً، وَقَدْ حَضَرَ إلى سُوْقِ الرِّقِيقِ مِنَ الصُّبْحِ الباكرِ، فَظَلَّ زَمَنًا يَطُوفُ على حَلَقَاتِ السَّماسِرَةِ، يُجِيلُ بَصَرَهُ في وُجُوهِ الرِّقِيقِ، وكَلَّمَا لمحتُ عينُهُ صَبِيًّا أو صَبِيَّةً، وَقَفَّ عنده يتأملُه تأملًا دقيقًا، حَتَّى وَصَلَ إلى حَلْقَةِ دَلَّالِنَا «حَافِظِ الوَاسِطِيَّ»، فَمَا إن وَقَعَ بَصَرُهُ على (قطن) و(جلنار) حَتَّى خفق قلبُه، وقالَ في نَفْسِهِ: «هَأنذا قد وَجَدْتُ بُغِيَّتِي». ووقفَ بُرْهَةً يَنْفَرَسُ في الصَّبِيِّينِ، فما يزدادُ إلا مَيْلًا إِلَيْهِمَا وَرَغْبَةً فِيهِمَا، ثم دَارَ على الحَلَقَاتِ الأُخْرَى كَرَّةً^(٢٢) أُخْرَى كأنه أرادَ أَنْ يَتَثَبَّتَ لِنَفْسِهِ وَيَسْتَيْقِنَ^(٢٣) أَنْ لَيْسَ فِيهَا أَصْلَحُ لَهُ مِنْهُمَا وَأَوْفَقُ، أو إِنَّمَا شاءَ أَنْ يَصْرِفَ الأَنْظارَ عَنْهُ، ولا سِيَّما نَظَرَ الدَّلَالَ؛ لِئَلَّا يَعْرِفَ تَعَلُّقَهُ بِهِمَا فيُعْلِيَهُمَا عليه. ثم عادَ إلى الحَلْقَةِ واتَّخَذَ لِنَفْسِهِ مَقْعَدًا في جانبِ منها، بحيثُ يَرى الصَّبِيِّينِ، فَظَلَّ يَسَارِقُهُمَا^(٢٤) وَيُسَارِقُ النَّاسَ النَظَرَ إِلَيْهِمَا طَوَالَ لُبُّثِهِ هَناكَ، يَنتَظِرُ أَوَّانَ عَرَضِهِمَا. وما لبثَ (قطن) و(جلنار) أَنْ شَعَرَ بِمَكَانِ هَذَا الشَّيْخِ الجَمِيلِ الهيئَةِ وَتَكَرَّارِهِ النَظَرَ إِلَيْهِمَا دونَ سائِرِ الحاضِرِينَ الذينَ شَغَلَهُمُ التَطَلُّعُ إلى المَعْرُوضِينَ قَبْلَهُمَا، والاسْتِماعُ إلى ما يُنادِي به الدَّلَالُ الفَصيحُ عليهم، من طرائفِ البَيانِ^(٢٥) الممتعِ، فألهاهُمُ ذلكَ عَنهُمَا، وهما يَمسحانِ دَمْعَهُمَا الفَيْنَةَ بعدَ الفَيْنَةِ^(٢٦)، خِلْسَةً عن الأَعْيُنِ، إلا عَيْنَ ذلكَ الشَّيْخِ الذي كان

(٢٤) يسارقهما: يختلس النظر إليهما خفية.

(٢٥) البيان: النطق الفصيح.

(٢٦) الفينة بعد الفينة: حينًا بعد حين،

الفينة: الساعة والحين.

(١٩) اليسار: الثراء والغنى.

(٢٠) وحطه: فشا فيه الشيب.

(٢١) وقارًا: رزانة وجلمًا.

(٢٢) كرة: رجعة.

(٢٣) يستيقن: يتأكد.

(١٤) سخنائِه: هيئته.

(١٥) مدلًا: فخورًا.

(١٦) تيهًا: تكبرًا.

(١٧) الوضيين: الجميلين.

(١٨) مخايل: دلائل.

لا يَغْفُلُ عنهما لحظةً، كأنه مَشْغُولٌ بهما عَمَّا النَّاسُ فيه، فتضايقًا أَوَّلَ الأَمْرِ مِنْ عَيْنِهِ العَالِقَةِ، وَحَسِبَاهُ رَقِيبًا مَوْكَلًا، باستِطْلَاعِ ما يُحَاوِلُ سَتْرَهُ عَنِ العُيُونِ مِنْ لَوَاعِجِ (٢٧) هَمَّهُمَا، لما شَعَرَ به مِنَ الدُّلِّ والمَهَانَةِ في ذلك الموقِفِ البغيضِ، ولكنَّهُمَا ما لَبَثَا إِذْ رَأَيَا الطَّيْبَةَ النَّاظِقَةَ في وَجْهِهِ، والحنانَ الفَائِضَ مِنْ عَيْنَيْهِ، أَنْ تَبَدَّلَ شُعُورُهُمَا نَحْوَهُ، فَصَارَا يَمِيلَانِ إِلَيْهِ، وَطَفِيقًا يُبَادِلَانِهِ النِّظَرَ بِحَبِّ وَطْمَأْنِينَةٍ، أَحَسَّ بِهِمَا الرَّجُلُ فَشَاعَ السُّرُورُ في وَجْهِهِ، وَلَوْلَا مُرَاعَاةُ الحَاضِرِينَ لَقَامَ إِلَيْهِمَا فَاحْتَضَنَهُمَا كَمَا يَحْتَضِنُ الأبُّ وَلَدَيْهِ يَلْقَاهُمَا بَعْدَ غِيَابٍ طَوِيلٍ، وَكَذَلِكَ كَانَ شُعُورُ الصَّبِيِّينَ نَحْوَهُ شَبِيهًا بِشُعُورِهِ نَحْوَهُمَا؛ إِذْ أَحَسَّا أَنَّهُ صَدِيقٌ لَهُمَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ حَالِهِمَا، وَسِرَّ نَكْبَتِهِمَا، قَدْ جَاءَ لِيُنْقِذَهُمَا مِمَّا هُمَا فِيهِ. وما يُدْرِيهمَا أَلَّا يَكُونَ رَسُولًا مِنْ قِبَلِ أَبِيهِمَا (السُّلْطَانِ جَلالِ الدينِ)، قَدْ بَعَثَ في طَلِبِهِمَا بَعْدَ أَنْ فَرَّغَ مِنْ قِتَالِ التُّتَارِ. أَلَمْ يَقُلْ لَهُمَا ذَلِكَ (الشَّيْخُ سَلَامَةُ الهِنْدِيُّ)؟ أَلَمْ يَعِدْهُمَا بِأَنَّهُ سَيُكَاتِبُ السُّلْطَانَ بِأَمْرِهِمَا مِنَ الجَبَلِ!؟

كَانَ الصَّبِيَّانِ يُجِيلَانِ هَذِهِ الأَفْكَارَ في رَأْسَيْهِمَا في وَقْتٍ مَعًا كَأَنَّمَا يَسْتَبْقَانِ في شَوْطٍ وَاحِدٍ، وَلَا يَدْعُ (٢٨) في ذلك مِنْ أَمْرِهِمَا؛ لِأَنَّهُمَا دَرَجًا (٢٩) مَعًا، حَتَّى بَلَغَا مِنَ التَّأَلُّفِ وَالتَّمَارُجِ أَنْ صَارَ أَحَدُهُمَا يَعْرِفُ خَبِيئَةَ نَفْسِ الأُخْرَى، وَمَكْنُونِ (٣٠) صَدْرِهِ، كَأَنَّهُمَا يَشْعُرَانِ بِقَلْبِ وَاحِدٍ، وَلَبَثَا يَنْتَظِرَانِ أَوَّانَ عَرَضِهِمَا بِفَارِغِ الصَّبْرِ، وَهُمَا لَا يَشْكَنَانِ فِي أَنْ صَاحِبَهُمَا سَيَتَقَدَّمُ لِشَرَائِهِمَا لَا يُغْلِيهِمَا عِنْدَهُ ثَمَنٌ، وَتَشَوُّقًا إِلَى مَعْرِفَةِ سِرِّهِ إِذَا مَا اشْتَرَاهُمَا وَمَضَى بِهِمَا مِنْ ذَلِكَ السُّوقِ الَّذِي أُنْدَى جَبِينَهُمَا وَلَقِيَا فِيهِ الحِزْيَ وَالهَوَانَ.

٧ (قُظَن) يَتَقَدَّمُ لِيَعْرِضَ نَفْسَهُ لِلْبَيْعِ وَالدَّلَالُ يُسَاعِدُهُ:

أَمَّا الدَّلَالُ فَإِنَّهُ مَا كَادَ يَفْرُغُ مِنْ أَمْرِ (بِيبِرسِ) حَتَّى وَجَدَ النَّاسَ يَتَطَّلِعُونَ إِلَى الصَّبِيِّينَ، وَمَا يَشْكُونُ فِي أَنَّهُمَا شَقِيقَانِ لَشِدَّةِ تَقَارُبِهِمَا فِي المَلَامِحِ، وَاتِّفَاقِهِمَا فِي الدَّمِ، فَوَقَّفَ أَمَامَهُمَا لَا يَدْرِي بِأَيِّهِمَا يَبْدَأُ، وَكَانَتْ سُنَّتُهُ (٣١) فِي ذَلِكَ أَنْ يَبْدَأَ بِالْأَقْلِ قَدْرًا؛ لِيَحْتَفِظَ بِبِقَاءِ النَّاسِ فِي حَلْقَتِهِ، مُتَطَّلِعِينَ إِلَى مَنْ يَفْضُلُهُ مِنَ البَاقِينَ عِنْدَهُ. وَقَدْ حَارَى الصَّبِيِّينَ يُقَدِّمُ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا يَجْزِمُ أَيُّهُمَا يَفْضُلُ أُخَاهُ، وَلَكِنَّ (قُظَن) قَطَعَ عَلَيْهِ هَذَا التَّحْيِيرَ فِي التَّخْيِيرِ؛ إِذْ قَامَ فَتَقَدَّمَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ، فَمَا وَسِعَ الدَّلَالُ إِلَّا قَبُولَ عَرَضِهِ، فَأَوْقَفَهُ عَلَى الدِّكَّةِ وَوَجْهَهُ يَحْمُرُ حَجَلًا، يَكَادُ يَنْبَجِسُ (٣٢) مِنْهُ الدَّمُ، وَنَادَى عَلَيْهِ وَالعُيُونُ ثَابِتَةٌ فِيهِ:

مَنْ لِلْغُلَامِ الوَسِيمِ	مَنْ لِلنَّجَّارِ (٣٣) الكَرِيمِ
ذَكَوْهُ فَوَقَّ سِنُّهُ	وَحُسْنُ نَفْسِهِ دُونَ يَمِينِهِ
سَمَاحَةٌ وَشَجَاعَةٌ	وَعِزَّةٌ وَوَدَاعَةٌ
لَوْلَا صُرُوفُ (٣٤) اللَّيَالِي	مَا بَاعَ هَذَا بِمَالِ

٨ تَسَابِقُ الرَّاغِبِينَ فِي شِرَاءِ (قُظَن) حَتَّى يَبِيعَ لِلتَّاجِرِ (الدَّمَشْقِيِّ):

وَلَمَّ يَكْدِ الدَّلَالُ يَتَمُّ نَدَاءَهُ هَذَا حَتَّى تَسَابِقَ الرَّاغِبُونَ فِي شِرَائِهِ أَيُّهُمْ يَفُوزُ بِهِ، فَجَعَلُوا يَتَبَارَعُونَ فِي رَفْعِ قِيمَتِهِ، حَتَّى بَلَغُوا بِهَا مِائَتَيْنِ وَسَبْعِينَ، فَأَتَمَّهَا الدَّمَشْقِيُّ (ثَلَاثِمِائَةً)، فَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى الزِّيَادَةِ، فَسَلَّمَهُ الدَّلَالُ إِلَيْهِ وَهَنَاهُ بِهِ، وَمَضَى الغُلَامُ إِلَى مَوْلَاهُ الجَدِيدِ فَرِحًا يَحْمَدُ اللهَ عَلَى أَنْ لَمْ يظْفَرْ بِهِ سِوَاهُ وَوَقَّفَ قَرِيبًا مِنْهُ، وَمَا لَبَثَ الشَّيْخُ أَنْ كَلَّمَهُ كَلَامًا لِيُنَا تَطْيِيبًا لِخَاطِرِهِ، فَلَمْ يَفْهَمْ (قُظَن) مَا يَقُولُ، وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّهُ يُلَاطِفُهُ بِذَلِكَ، فَوَدَّ لَوَأنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ اللِّسَانَ العَرَبِيَّ لِيُجِيبَهُ عَلَى حَدِيثِهِ، فَكَتَفَى بِأَنْ ابْتَسَمَ لَهُ.

(٣٣) النَّجَّار: الأَصْلُ وَالحَسْبُ.

(٣٤) صُرُوف: تَقْلِبَاتٌ وَمَصَانِبُ.

(٣٠) مَكْنُون: مَسْتُور.

(٣١) سُنَّتُهُ: طَرِيقَتُهُ.

(٣٢) يَنْبَجِسُ: يَنْفَجِرُ.

(٢٧) لَوَاعِجُ: شِدَّةٌ.

(٢٨) لَا يَدْعُ: لَا غَرَابَةَ وَلَا عَجَبٌ.

(٢٩) دَرَجًا: مَسْجِيًا.

الدَّالُّ يَعْرِضُ (جُلْنَارَ) لِلْبَيْعِ وَتَبَاعَ (لِلدَّمَشْقِيِّ):

٩

ولم يمهلهما الدلالُ طويلاً إذ أخذ حينئذٍ بيدي (جُلْنَارَ)، فأقامها على الدكة فتوجه انتباههما وانتباه الناس إليها، وقد تورَّد خداهما، وأخذت ترنو إلى (قُطْنَ) وإلى مولاهُ الشيخِ كأنها تستعطفه أن يحوزها ولا يدع أحداً غيره يفوز بها دونه. ولم يخف على الدلالِ تطلُّع الحاضرين - ولا سيَّما الرجلُ (الدَّمَشْقِيُّ) - لشرائها، ولو شاء لاستغنى بعرضها عن المناداةِ عليها، ولكنَّه لم يشأ أن يُخلَّ بعادته هذه، ولم تطب نفسه بالسُّكوتِ عن الإشادةِ بمحاسن هذه الصبيَّةِ البارعةِ الحُسنِ فجعل يقول:

يَا قَطْرَةَ مِنَ النَّدَى	يَا فَلَقَةَ مِنَ الْقَمَرِ
يَا نَسْمَةَ مِنَ الشَّدَا (٣٥)	تَنَفَّسَتْ وَقُتَّ السَّحَرِ
حَامِلَةً فِي رُذْنِهَا (٣٦)	أَطْيَبَ أَنْفَاسِ الرَّهْرِ

فَتَنَافَسَ الْحَاضِرُونَ فِي شَرَائِهَا، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ (الدَّمَشْقِيَّ) ظَلَّ يُزَايِدُهُمْ فِي الثَّمَنِ حَتَّى بَلَغَ ثَلَاثِمِائَةَ دِينَارٍ، وَكَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ وَلَا يُزِيدَ عَلَيْهِ، وَكَادَ يَتْرُكُهَا لِمُنَافِسِهِ الَّذِي زَادَ عَلَيْهِ عَشْرَةَ دِنَانِيرٍ لَوْلَا أَنْ نَظَرَ إِلَى (قُطْنَ) فَرَأَهُ **مُمْتَقِعَ (٣٧)** الْجَبِينِ يَابِسَ الشَّفَتَيْنِ يَنْتَفِضُ مِنَ الْقَلْقِ، وَالِدَّمْعُ فِي عَيْنَيْهِ تَسْتَعِظْفَانِهِ أَلَّا يَبْخَلَ بِالرِّيَادَةِ؛ لِئَلَّا يُفْرَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَفِيقَتِهِ. فَرَّقَ لَهُ، وَغَلَبَتْهُ الشَّفَقَةُ، فزاد أربعين ديناراً دفعةً واحدةً؛ ليقطع على منافسه السبيل، فعرف المنافس أن لا فائدة من المزايدة فتركها له، وما كان أشدَّ فرح الغلام إذ أعلن الدلال أنها لمولاه، وقدّمها له فنقده الشيخ (ثلاثمائة وخمسين ديناراً)، ومضى بهما وهما لا يكادان يُصدقان من الفرح أنهما قد نجوا من خطر الافتراق.

(٣٧) ممتقع: متغير اللون.

(٣٦) رذنها: كمها. المراد: ملابسها.

(٣٥) الشدا: العطر.



عرض الأحداث

١ (غانم المقدسي) يُعنى بتربية الطّفلين:

اطمأن بالصبيين المقام بدمشق عند سيدهما الجديد الشيخ (غانم المقدسي)، ونزلاً في قصره الكبير بـ (درب القصاصين)، تحيط به حديقة غناء^(١) حافلة بالكروم^(٢) وأشجار التين والتفاح والزيتون؛ وكان الشيخ (غانم المقدسي) من أعيان (دمشق) ووجهائها المعدودين. له أملاك كبيرة، وضياع واسعة ورثها عن أبيه، وكان رجلاً طيباً يحب الصدقة ويحضر مجالس العلم، وقد كبر في السن ولم يسلم له من الولد إلا ابن يدعى (موسى) كان قد أنفق في تربيته وتهذيبه كثيراً من المال؛ ليجعل منه رجلاً صالحاً يخلد ذكره، ويخلفه في بيته المجيد.

٢ (الشيخ غانم) يئس من إصلاح ابنه:

ولكن (موسى) أخلف ظن أبيه فيه، فنشأ فاسد الخلق ميلاً إلى اللهو ومخالطة عشاء السوء من الفتيان الخلعان^(٣) الماجنين^(٤)، وقد حاول أبوه بكل وسيلة أن يصرفه عن ذلك فلم يفلح، وما زاد (موسى) إلا عتواً^(٥) ونفوراً، حتى يئس من إصلاحه، فترك حبله على غاربه^(٦) واعتبره كأن لم يكن. ولولا مكان والدته وشفاعتها فيه لطرده من بيته وتخلص من معرته.

٣ (الشيخ غانم) يأمل أن يعوّضه الله بالطّفلين ما فقدّه في ابنه الفاسد:

وقد دفعه يأسه من ولده إلى التفكير في أن يبتاع غلاماً وسيماً حسن الطاعة عسى أن يتخذه ولداً يئس به، ويطمئن إليه، ويجد عنده من البر والاستقامة ما فقدّه في ولده، فجهد^(٧) زمناً يتبّع أسواق الرقيق ليجد الغلام الذي يطمح إليه، حتى وجد ضالته في (قطن)، فاشتراه ولم يتردد؛ لما توّسم فيه من الخير والنبل، وعن^(٨) له لما رأى (جلنار) أن يشتريها أيضاً؛ ليتخذها ابنة تونسه وتونس زوجته العجوز. وشاء الله ألا تخطئ فِراسة الشيخ في الصبيين، فلم تمض عليهما في حوزته إلا أيام قلائل حتى تبين إخلاصهما في حبه وتعلقهما الشديد به، فأحبهما وأنزلهما من نفسه منزلاً كريماً، وبالغ في رعايتهما والحدب^(٩) عليهما، ووكل بهما من ساعدهما على تعلم اللسان العربي، فكان لهما من ذكائهما ما أسرع بهما إلى معرفته وإتقانه في زمن قصير.

(٦) غاربه: كاهله (حبله على غاربه) يذهب حيث يشاء.

(٧) جهد: جدّ.

(٨) عن: ظهر.

(٩) الحدب: العطف.

(١) غناء: كثيرة الأشجار.

(٢) حافلة بالكروم: مملوءة بأشجار العنب.

(٣) الخلعان: المفرد: الخليع وهو الذي ترك الحياء.

(٤) الماجنين: الخلعا.

(٥) عتواً: استكباراً.

٤ آثار موت (جنكيز خان) و(جلال الدين):

ووردت الأنباءُ إذ ذاك بموتِ الطَّاغِيَةِ (جنكيز خان) في مَسْقَطِ رأسه، وأنَّ قومَه التتارَ الذين كانوا يُقاتِلون السُّلطانَ (جلال الدين) قد انحسروا إلى بلادهم، ورجعوا عن غزو بلاد الإسلام لما بلغهم خبر هلاكه؛ ففرح الناسُ بذلك فرحًا عظيمًا، وذهب عنهم ما كان يُساورهم من الخوفِ والهلعِ، وحمدوا اللهَ على أن كفاهم شرَّ أولئك الغزاة المتوحشين الذين ينزلون الهلاكَ والدمارَ والنقمةَ والعذابَ بكلِّ بلدٍ ينزلونه، وبلغهم كذلك موتُ (السلطانِ جلال الدين) قتيلاً في جبل الأكراد حين لجأ إليه بعدما انهزم من عدوه، فمَنَّهُم من شَمِتَ^(١٠) بموتهِ، ومَنَّهُم من حَزَنَ عليه لما قام به وقام أبوه به من قبله من جهادِ التتارِ وصدِّ جموعهم عن بلاد الإسلام.

استفاضت هذه الأخبارُ في (دمشق) حتى صارت حديثَ الناسِ في مجالسهم وأسماهم، وتذكروا وقائع (جلال الدين) و(خوارزم شاه) مع التتارِ، وما حلَّ بهما وبيئتهما من النكباتِ العظامِ، حتَّى انطوى ملكهما، وانقطع دابرهما^(١١) ولم يبقَ من أهلهما من أحدٍ، ولكنَّ أحدًا منهم لم يعلم أن (ابنةَ جلال الدين وابنَ أخته) يعيشان بين ظهرائيهما في قصر من قُصورِ مدينتهم العظيمةِ، وعند رجلٍ من كبار أعيانها. وقد حزنَ (قُطرز وجُنار) لما بلغهما موتُ (جلال الدين)، وقد كانا يُمَيِّنانِ أنفسهما بالرجوعِ إليه، فانقطع أملهما في ذلك، وأيقنا أنهما سيبقيان في رقبهما إلى الأبدِ، وإنما عزَّاهما في ذلك، وخففَ من حُزنهما ما كانا يجدان من برِّ مولاهما وحُسنِ رعايته وإحسانه، فجعلهما يسألوانِ مُصابهما وشيكا.

٥ حُبُّ شَرِيفِ بَيْنَ (قُطْرز) و(جُنار):

ومرَّت السنونُ سِرَاعًا، وتوالتِ الأحداثُ تَتْرِي^(١٢)، وانقضت لهُما في بيِّت (الشيخِ غانمِ المقدسى) عشرةُ أعوامٍ أو تزيدُ نمواً فيها وترعرعاً حتَّى بلغَ (قُطرز) مبلغَ الرجالِ، وبلغتِ (جُنار) مبلغَ النساءِ، وكانتِ الألفةُ التي بينهما تنمو معهما وتترعرعُ، فشعرا بفيوض^(١٣) من السَّعادةِ لم يشعرا بمثلهما قطُّ تغمرهما؛ فتَنَسَّيهما كلُّ ما مرَّ بهما من نعيمِ المُلِكِ وما اختلفَ عليهما بعد ذلك من صروفِ الأيامِ ونكباتها، وحليِّتِ الدُّنيا في عينيَّهما فصارتِ رياضاً وأنهاراً ووروداً وأزهاراً، وطُيُوفاً^(١٤) من ضياءِ الشَّفَقِ البهيجِ، ورؤوحاتٍ من نسيمِ الفَجْرِ العليلِ يتقلبان منها في أيامِ كُلِّها أصيل، وليالِ كُلِّها سحر.

٦ (الشيخُ غانم) يُبارِكُ هذا الحُبَّ الشَّرِيفَ ويوصي بتزويجهما وتزويجهما:

وكان مولاها الشيخُ وزوجته يَعلمانِ بهذه الصِّلةِ البريئةِ الطاهرةِ بينهما فشملاهما بالعطفِ والرِّضا، وتعهدهما بالتنميةِ، ووعدهما بتزويجِ أحدهما من الآخرِ حينما تنهياً الفرصةُ ويخفُ الشيخُ من مَرَضِ الشَّللِ الَّذِي أَلَمَّ به؛ لِكَي يحتفلَ بعُرسهما. ولما تطاولَ به المرضُ أراد أن يحتاطَ لمستقبلهما، فأوصى لهُما بجزءٍ من أملاكه، وبأن يُعتقا إذا ما دهمه الموتُ قبل أن يُهيئَ لهما أمرهما.

(١٠) شمت: فرح.

(١١) انقطع دابرهما: قُضي على أصلهما.

(١٢) تترى: متتابعة.

(١٣) فيوض: المفرد: فيض وهو الكثير.

(١٤) طيُوفاً: ألواناً متناسقة.

٧ (موسى) يُكَدِّرُ عَلَيْهِمَا سَعَادَتَهُمَا:

على أَنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي يَعِيشُ فِيهَا هَذَانِ الْحَبِيبَانِ لَمْ تَحُلْ مِنْ شَيْطَانٍ يُكَدِّرُ صَفْوَهَا عَلَيْهِمَا، وَيُنْفُثُ فِيهَا سُومَهِ نِكَايَةً (١٥) بهما، وَسَعِيًّا فِي إِخْرَاجِهِمَا مِنْهَا، فَهَذَا (مُوسَى) الْخَلِيعُ الْفَاسِدُ قَدْ زَادَتْ غَيْرَتُهُ مِنْ (قُطْن) لِمَا انْفَرَدَ بِهِ دُونَهُ مِنْ ثِقَةِ أَبِيهِ حَتَّى سَلَّمَهُ مَقَالِيدَ (١٦) خَزَائِنِهِ، وَأَسْنَدَ إِلَيْهِ إِدَارَةَ أَمْوَالِهِ وَأَمْلَاكِهِ. فَكَانَ (قُطْن) يُوزَعُ صَدَقَاتِهِ وَنَفَقَاتِهِ عَلَى أَقَارِبِهِ وَذَوِيهِ، وَيُنْفِقُ عَلَى حَاجَاتِ الْقَصْرِ وَمَنْ فِيهِ مِنَ الْخَدَمِ وَالْعَبِيدِ، وَلَا يَخْرُجُ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا مِنْ يَدِهِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى (مُوسَى)، وَغَاضَهُ أَنْ يَتَسَلَّمَ رَاتِبَهُ الْيَوْمَى مِنْ يَدِ مَمْلُوكِ أَبِيهِ. وَمِمَّا زَادَهُ حَقْدًا عَلَيْهِ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَالِ لِيُنْفِقَهُ فِي سَبِيلِ غَيْهِ وَفَسَادِهِ، فَيَتَوَسَّلُ إِلَى (قُطْن) لِيُعْطِيَهُ زِيَادَةً عَلَى رَاتِبِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمِ أَبِيهِ، فَيَأْتِي (قُطْن) وَيَقُولُ لَهُ: «هَذَا مَالُ سَيِّدِي، وَإِنَّمَا أَنَا أَمِينٌ عَلَيْهِ؛ فَلَا أَفْرُطُ فِيهِ، وَلَكِنْ اسْتَأْذِنْ أَبَاكَ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ أُعْطَيْتُكَ مِنْهُ مَا تُحِبُّ...». فَيَتَوَعَّدُ (قُطْن) وَيَتَهَدَّدُهُ، وَ(قُطْن) لَا يَأْبَهُ لَهُ.

٨ (قُطْن) يَعْطِفُ عَلَى (مُوسَى) وَيَتَحَمَّلُ أَذَاهُ رَغْمَ مُضَايَقَتِهِ (جُلْنَار):

وَلَمْ تَسَلِّمْ (جُلْنَار) مِنْ إِيْدَائِهِ وَمُضَايِقَاتِهِ؛ إِذْ كَانَ يُغَارِزُهَا وَيَتَعَرَّضُ لَهَا بِكُلِّ سَبِيلٍ وَيُسْمَعُهَا كَلِمَاتٍ يَنْدَى لَهَا جَبِينُهَا وَيَجُجُّهَا (١٧) سَمْعُهَا، فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا شَكَّتُهُ إِلَى مَوْلَاتِهَا، فَعَنَفَتْهُ (١٨) أُمُّهُ عَلَى فِعْلِهِ، قَائِلَةً لَهُ: إِنَّهَا زَوْجَةٌ (قُطْن) وَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا، وَهَدَّدَتْهُ بِقَطْعِ نَفْقَتِهِ وَطَرْدِهِ مِنَ الْمَنْزِلِ إِذَا عَادَ إِلَى مُضَايِقَتِهَا، وَزَادَهُ هَذَا كَرَاهِيَةً لـ (قُطْن) وَغَيْرَةً مِنْهُ. وَكَانَ (قُطْن) يَعْطِفُ عَلَى هَذَا الشَّابِّ الْفَاسِدِ وَيُرِقُّ لِحَالِهِ، وَيَتَحَمَّلُ كَثِيرًا مِنْ أَذَاهُ، وَلَا يَشْكُوهُ إِلَى أَبِيهِ لئَلَّا يُوْذِيَهُ وَيَزِيدَ فِي مَرَضِهِ، وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَنْصَحُهُ بِالْإِقْلَاعِ عَمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ الشَّرَابِ وَالْفَسَادِ أَوْ الْإِقْلَالِ مِنْهُمَا، وَيَعِدُّهُ بِالسَّعَى عِنْدَ وَالِدِهِ لِيَرْضَى عَنْهُ وَيَزِيدَ فِي رَاتِبِهِ، فَمَا يَزِيدُهُ هَذَا إِلَّا بُغْضًا لـ (قُطْن)، وَتَعَالِيًا عَلَيْهِ وَتَمَادِيًا فِي غَيْهِ.

٩ سُلُوكِيَّاتٍ (مُوسَى) تَزْدَادُ سُوءًا:

وَأَشْتَدَّتِ الْعِلَّةُ بِ(الشَّيْخِ غَانِمٍ)، فَفَلِقَ عَلَيْهِ جَمِيعُ مَنْ فِي الْقَصْرِ، إِلَّا ابْنَهُ (مُوسَى)؛ فَقَدْ فَرِحَ بِذَلِكَ وَجَهَرَ بِأَنْ سَيَخْلُو الْجُوُّ لَهُ بِمَوْتِ أَبِيهِ، فَيَتَصَرَّفُ فِي أَمْوَالِهِ وَأَمْلَاكِهِ كَمَا يَشَاءُ، وَيَنْتَقِمُ مِنْ (قُطْن)، فَيُهَيِّنُهُ وَيَضْطَهُدُهُ وَيَنْتَزِعُ (جُلْنَار) مِنْهُ، وَيُكْرِهُهَا عَلَى الْخُضُوعِ لِمَا يَرِيدُ، وَتَمَادَى فِي الْغَىِّ حِينَ أَيْقَنَ بِقُرْبِ وَفَاةِ أَبِيهِ.

١٠ مُبَالِغَةٌ (مُوسَى) فِي إِيْدَاءِ (قُطْن) بَعْدَ وَفَاةِ (الشَّيْخِ غَانِمِ):

وَمَاتَ الشَّيْخُ (غَانِمُ الْمُقَدَّسِيُّ) بَعْدَ حَيَاةٍ مَدِيدَةٍ قَضَاهَا فِي الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ. فَبَكَاهُ النَّاسُ وَأَسْفُؤُوا لِفَقْدِهِ وَتَرَحَّمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا ذَكَرُوا ابْنَهُ (مُوسَى) عَزَّ (١٩) عَلَيْهِمُ إِلَّا يَخْلُفُ هَذَا الرَّجُلَ الصَّالِحَ إِلَّا ذَلِكَ الْوَلَدُ الطَّالِحُ!

(١٥) نِكَايَةٌ: إِسَاءَةٌ.

(١٧) يَمَجُّهَا: يَنْفِرُ مِنْهَا.

(١٦) مَقَالِيدُ: مَفَاتِيحُ.

(١٩) عَزَّ: صَعَبَ.

(١٨) عَنَفَتْهُ: وَجَحَّتَهُ.

(١٦) مَقَالِيدُ: مَفَاتِيحُ.

وأما (قُظن) و(جُنَّار) فقد رحلَ عنهما منه والدٌ كريمٌ، رءوفٌ بهما رحيمٌ، فبكيه أحرَّ البُكاءِ، ووَاسِيَا رُوجَتَه العَجُوزَ بَكلِّ ما في وَسْعِهما، وقامَا على خِدْمَتِها، وصَبَرا في سَبيلِها على ما يُصِيبُهما مِن لِسَانِ (مُوسَى) ويده؛ إذ تَنَمَّرَ لهُما^(٢٠) بعدَ وفاةِ أبيه، وجَعَلَ يَضْطَهِدُهما وَيَعْتَدِي على (قُظن) بالسَّبِّ والضَّرْبِ، فما يُجِيبُانَه بِغَيْرِ الصَّبْرِ والسُّكُوتِ؛ إكرامًا لمولاهما ورعايةً لمولاتهما الحزنى، ريثما تَنْتَهِى أَيَّامُ العِزَّةِ فيبْرَحانِ^(٢١) القَصْرَ إلى حيثُ يَتَزَوَّجانِ وَيَعِيشانِ آمِنَيْنِ هانئَيْنِ كما دَبَّرَ لهُما ذلكَ مولاهما الفقيدُ.

١١ (موسى) يُلغى وصية والده ويتودد إلى (جُنَّار):

وما عَلِمَا أَنَّ (مُوسَى) قد جَدَّ في الكَيْدِ لهُما، واتَّصَلَ بِجَماعَةٍ مِنَ فُجَهاءِ السُّوءِ، فأبْطَلُوا له وصيَّةَ أبيه بِصَدَدِ عَنقِهما والأَملاكِ التي أوْصَى بِها لهُما، فما راعَهُما إلا (مُوسَى) قد جاء يُخْبِرُهُما بِبُطْلاقِ الوَصِيَّةِ، وبِقائِهما على رِقَّتِهما، فَعَزَّ عَلِيَهُما أنْ يَنْهارَ بَيْنَ عَمَصَّةِ عَيْنٍ وانتباهَتِها ما بَنِياهُ مِنَ الأَمالِ، وأنْ يَعودَا لا إلى كَنَفِ مَولاهُما الشَّيخِ الصَّالِحِ - إذنُ لَهانَ عليهما الأَمْرُ- ولكنَّ إلى رِقِّ ابْنِه الفَاسِقِ الظَّالِمِ، لِيُعَذِّبَهُما وَيُهَيِّنَهُما ما شاءَ له حَقْدُه وانتقامُه، ولما عَلِمَتْ مَولَتُهُما العَجُوزُ بما فَعَلَ ابْنُها غَضِبَتْ مِنْ عَمَلِه، وَصَبَّتْ لَعناتِها على رَأْسِه، وطفقت^(٢٢) تُواسِيَهُما وتَقُولُ لهُما إنَّهُما سَيَكُونانِ تحتَ رعايَتِها وجمائِتها، ولَنْ يَمسَّهما (مُوسَى) بِسُوءِ، ووعدتُهُما بأنَّها ستَجتهدُ حينَ تُقسِمُ التَّركةَ أنْ تَجعلَهُما مِنْ نَصيبِها فَتَعْتَقَهُما وتزَوِّجَهُما، وتَجعلَ لهُما رِزقًا يَعيشانِ مِنْه.

وعَلِمَ (مُوسَى) بما عَزَمَتْ عليه أُمُّه، فأجَلَ قِسمَةَ الميراثِ طَمَعًا في أنْ يَحوَلَ دُونَ ما تَريدُ.. وفي خِلالِ ذلكَ أخذَ يَتَقَرَّبُ إلى (جُنَّار) ويقولُ لها: «أَصْبَحْتَ اليَومَ مَلِكٌ يَمِينِي» فَتَهَرَّبُ مِنْ وَجْهِه وتَلوذُ بِسَيِّدَتِها فَتَحْمِيها مِنْه.. وأحيانًا يَأْتِيها وَيَقُولُ لها مُتَلَطِّفًا: «سَأَتُخِذُكَ رُوجَةَ لِي وَسَتَكُونِينَ سَيِّدَةَ هَذا القَصْرِ، لِكِ فِيهِ الأَمْرُ والنَّهْيُ، وَيَكُونُ (قُظن) عَبدًا لَكَ». فَمَا تُجِيبُه إلا بالسُّكُوتِ والإِعْراضِ.

١٢ (موسى) يبيع (جُنَّار) لمصرى رَغْمًا عَن والدِته:

ولما طالَ ذلكَ عليه وَيئَسَ مِنْ رِضاها، ثارَ به الغَضَبُ، وأقسَمَ لِيُفَرِّقَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَ (قُظن)؛ لِيَنْتَقِمَ مِنْها وَمِنْه، فَذَهَبَ إلى وَصِيَّ أبيه وادَّعى أنْ (جُنَّار) كانَتْ سَبَبَ الفُرقةِ والخِصامِ بَيْنَها وَبَيْنَ والدِتهِ، وأنَّه سَيَعودُ إلى بَرِّ والدِتهِ وطاعَتِها إذا بَيَعَتْ هَذه الجاريةَ النَّمامةَ^(٢٣)، وجَعَلَ يَلحُ عليه في بَيعِها، وكانَ قد أَحْضَرَ سِمَسارًا مَعَه؛ لِيَجِيءَ بِمَبْتاعٍ لِلجاريةِ، وجَعَلَ له على ذلكَ أَجرًا، فما كانَ مِنَ الوَصِيِّ إلا أنْ باعَ الجاريةَ لِلسَّمسارِ، وباعَها السَّمسارُ لِرَجُلٍ مِنَ (مِصر).

فُوجِئَتْ (أُمُّ مُوسَى) بما كانَ مِنَ بَيعِ جُنَّارِ على غَيرِ عِلْمِها، فبَعثَتْ إلى الوَصِيِّ تُعاتِبُه على ما صَنَعَ، وتَلحُ عليه أنْ يَسْتَقِيلَ وَيَسْتَعِيدَها مِنْه، ولكنَّ (مُوسَى) قد أوعَرَ لِلرَجُلِ المِصرِيِّ فأبى البِيعَةَ ولكنَّه اعتَدَرَ إليها بأنَّ ذلكَ لَمْ يَبقُ في إمكانِها إلا أنْ يَقْبَلَ الصَّفقةَ، وأصرَّ على طَلبِ الجاريةِ، فَمَا وَسِعَ الوَصِيُّ إلا تَسليمَها إليه. ولَمَّا عَلِمَتْ (جُنَّار) بأنَّها سَتُحْمَلُ وشيْكا إلى مَولِها الجَدِيدِ، بَكَتْ بُكاءً شَدِيدًا وَتَسَبَّثَتْ بِشِبابِ مَولَتِها مُسْتَغِيثَةً بِها ألا تَرْضَى بِتَسليمِها، قائلةً: «اقتليني يا سَيِّدَتِي ولا تُسَلِّمِني إلى هَؤُلاءِ!». فَضَمَّتْها العَجُوزُ إليها، وأجابَتْها والدُموغُ تَنهَمِرُ مِنْ عَينِها: «تَعَلِّمِينِ يا (جُنَّار) أنْ لَيْسَ لِي مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، وإِنَّكَ لَأَعزُّ عَلَيَّ مِنَ ابْنَتِي، وقد اجْتهدتُ أنْ أحتَفِظَ بِكَ، ولكنَّ ماذا أَصنَعُ وقد باعوكَ بِغَيرِ عِلْمِي؟ لَعَنَ اللهُ ابْنِي، فَشَدَّ ما عَدَّيْنِي وأَذانِي!! يا لَيْتَنِي عَقَرْتُ فَلَمْ أَحْمَلْ بِهِ، أو لَيْتَنِي إذْ حَمَلْتُ بِهِ أَسْقَطْتُهُ! لَنْ يَكْفَ عَنِّي هَذا الوَلدُ العاقُّ حَتى يُلحِقَنِي بِأبيهِ، حَسْبِي اللهُ مِنْكَ يا (مُوسَى)، حَسْبِي اللهُ مِنْكَ!»

(٢٢) طفقت: بدأت وأخذت.

(٢٠) تنمَّر لهما: المراد: انقلب ضدَّهما واشتد.

(٢٣) النمامة: التي تسعى بالعداوة بين الناس.

(٢١) فيبرحان: فيغادران.

١٣ (قُظَن) يودّع (جُلنار) في مشهد حزين، مُتمنياً اللقاء:

وكان (قُظَن) واقفاً ينظرُ إليهما، ويبكي، حتّى رأى (مُوسى) قد أقبلَ ومعَه السَّمسارُ وجماعته، فكفّف دمعَهُ وكتّم جزعَه، وأظهرَ التَّجلّدَ مكانه، ووقفَ كأنه تمثالٌ من الصَّخِرِ الأَصمِّ، ولَمَّا رأتهُم (جُلنار) وعلمتُ أن لا مناصَ لها من المسيرِ معَهُم، أرسلتُ ثيابَ مولاتِها الوالِهة^(٢٤) الحسرى، واندفعتُ إلى حبيبِها (قُظَن) تودّعه وداعاً حارّاً مُفعمّاً^(٢٥) بالحسرة والألم. وهو يقولُ لها: «أستودعُك الله يا حبيبتي، أستودعُك الله يا (جُلنار)، سيجمعُ الله شملنا بحوله وقوته» فاستأخرتُ عنه (جُلنار) وهى تقول: «أستودعُك الله يا (محمود)، أستودعُك الله يا حبيبى». ومالتُ إلى مولاتِها، فأهوتُ على رأسها تُقبلُه حتّى بلّثته بدموعها، والعجوزُ تلثم^(٢٦) أطرافها وتبكي، إلى أن تقدّم (قُظَن) فجدبها وهو يقول: «حسبك يا (جُلنار)، توكلّى على الله، ولا تحبسى أصحابك، وثقى بأن الله موجودٌ، وهو على جمعنا إذا يشاءٌ قديرٌ».

فأشارَ (موسى) للسَّمسارِ قائلاً: «امضِ بها يا هذا، ولا تدعُ وقتنا يمضى في هذا العبثِ». فأخذَ السَّمسارُ بيدها، فمضتُ معه، وعينها تلتفتُ مرّةً إلى سيدتها ومرّةً إلى حبيبها، حتى توارتُ، وبقيَ (قُظَن) واقفاً مكانه كأنه جمادٌ ينظرُ إلى سيدته الباكية الحزينة، وتنظرُ إليه حتّى إذا ما اختفى (موسى) في أثر السَّمسارِ وجماعته، غلبتِ الرقةُ (قُظَن)، فدنا منها باكياً، وجعلَ يُقبلُ رأسها ويديها قائلاً: «أشكرك يا سيدي الكريمة، لقد بدلتِ كلَّ جهديك، ولا لومَ عليك فيما حدث». فقالتُ له: «أحسنَ الله إليك يا بُنى، ستكونُ عندي بمثابة ابنى، إن شئتُ اعتقتُك، فمضيتُ حراً إلى حيثُ تريدُ». قالَ لها: «يا مولاتي لا أريدُ بخدمتك بدلاً، بيدَ أنى أخافُ أن يتحرّشَ بى (موسى) - وقد نَفدَ صبرى - فأسيءُ إليه فيغضبَكَ ذلكَ منى». فقالتُ: «معاذَ الله أن أغضبَ لموسى منك، لو قتلته لأرحمتى منه». فأجابها: ما يكونُ لى أن أعتدي على ابنِ مولاى الذى أكرمَ مَثواى وأحسنَ إلىّ.

١٤ (قُظَن) يتسلى عند صديقه (الحاج على الفراش):

واستأذنَ (قُظَن) مولاته، فمضى إلى صديقه الحميم (الحاج على الفراش)، وكان شيخاً صالحاً يخدمُ سرّياً^(٢٧) آخرَ من سراة (دمشق) وأعيانها، يقال له (ابنُ الزعيم)، كان يسكنُ فى قصرٍ قريبٍ من قصرِ الشيخ (غانم المقدسى)، لا يقلُّ عنه سعةً وفخامةً، وكان (قُظَن) كثيرَ الاختلافِ إليه^(٢٨)، يجلسُ معه على مصطبةٍ كبيرةٍ مظلمةٍ بفروعِ الشجرِ تقعُ عندَ مدخلِ بُستانِ (ابنِ الزعيم)، فيشكُو (قُظَن) همومَه إليه ويبثُه آلامَه ويستشيرُه فى شؤونه، ويتجادبانِ أطرافَ الحديثِ فى شئونٍ مختلفةٍ، وكان (الحاجُ على) شديدَ العطفِ على (قُظَن) والحبِّ له، وقد أحسَّ فى ضميره، بما أعطى من قوّةِ الفِراسَةِ وصدقِ الحدسِ، أن لا بدَّ لهذا المملوكِ فى صِباحَةِ وجهه ونبلِ خِلاله^(٢٩) من سرِّ يكتمه عن الناسِ جميعاً، فاجتهدَ زَمناً أن يكتشفَ هذا السرَّ من صديقه الشابِّ فلم يوفِّقْ، إلّا أن ظنَّه لم يزددْ على الأيامِ إلا قوّةً عنده بما كان يؤيِّده من فلّاتِ لسانِ صاحبه فى ثنّايا حديثه، فجعلَ يضمُّ بعضُها إلى بعضٍ، ويستخرجُ منها صورةً غامضةً لأصلِ هذا الغلامِ. فلَمَّا أقبلَ عليه حيّاهُ، وفرَّشَ له على المصطبةِ كعادته، وأخذَ يُعزِّيه فى وفاةِ مولاةٍ ويُعدِّدُ مناقبه ومكارمه، فمضى (قُظَن) يشكُو إليه ما أصابه من اضطهادِ (موسى) بعدَ وفاةِ أبيه، وما مُنى به من فراقِ حبيبته (جُلنار)، وكيفَ أنه سيَمُ الحياةَ بعدها، فجعلَ الحاجُّ يلاطفُه ويُسلِّيه.

(٢٨) الاختلافُ إليه: الترددُ عليه.

(٢٦) تلثم: تقبل.

(٢٤) الوالِهة: المتحيرة شديدة الحزن.

(٢٩) نبل خِلاله: كريم صفاته.

(٢٧) سرّياً: شريفاً. الجمع: سراة.

(٢٥) مفعماً: مملوءاً.

١٥ (موسى) يَلْطِمُ (قُظْنَ) عَلَى وَجْهِهِ، وَيَلْعَنُ أَبَاهُ وَجَدَّهُ:

وبينما هو كذلك، إذ أقبل (موسى) فدخل البابَ وبيده سَوْطٌ، فلَمَّا دَنَا مِنْهُمَا نَظَرَ إِلَى (قُظْنَ) نَظْرَةَ الْغَضَبِ، وَقَالَ لَهُ: «مَاذَا تَصْنَعُ هُنَا يَا هَذَا؟ أَمَا تَذْهَبُ لَعْمَلِكَ فِي الْقَصْرِ؟» فَلَمْ يُجِبْهُ (قُظْنَ) وَأَشَاحَ عَنْهُ بِوَجْهِهِ، فَاسْتَشَاطَ (٣٠) (موسى) غَضَبًا وَأَرَادَ أَنْ يَضْرِبَهُ بِالسَّوِطِ فَتَلَقَّاهُ (قُظْنَ) بِيَدِهِ وَأَمْسَكَ بِطَرْفِ السَّوِطِ فَلَمْ يَقْدِرْ (موسى) عَلَى انْتِزَاعِهِ، وَقَالَ لَهُ (قُظْنَ) عِنْدَ ذَلِكَ: «لَوْ شِئْتُ لَأَوْجَعْتُكَ بِسَوْطِكَ هَذَا ضَرْبًا، فَمِثْلُكَ أَيُّهَا السَّكِيرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِي، وَمَا يَمْنَعُنِي مِنَ الْبَطْشِ بِكَ إِلَّا احْتِرَامِي لَذِكْرِي أَبِيكَ».

فَلَطَمَهُ (موسى) عَلَى جَبِينِهِ فَاحْمَرَّ وَجْهُهُ (قُظْنَ)، وَنَظَرَ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ مُتَّقِدَتَيْنِ (٣١) كَأَنَّهُمَا جَدَّوَتَانِ (٣٢) مِنَ النَّارِ مَلَأَتَا قَلْبَ (موسى) رُغْبًا، فَانصَرَفَ عَنْهُ وَهُوَ يَسُبُّهُ وَيَلْعَنُ أَبَاهُ وَجَدَّهُ، وَ(قُظْنَ) جَامِدٌ فِي مَقْعِدِهِ عَلَى الْمِصْطَبَةِ، لَا يَتَحَرَّكُ وَلَا يَنْبَسُ (٣٣) بِنَبْتِ شَفَةِ، وَسَوْطٌ (موسى) فِي يَدِهِ، وَعَيْنَاهُ عَالِقَتَانِ بِالْبَابِ، حَتَّى اخْتَفَى (موسى). فَبَقِيَ هُنَيْهَةً وَاجِمًا عَلَى حَالِهِ تِلْكَ، ثُمَّ ارْتَمَى عَلَى الْمِصْطَبَةِ، سَاتِرًا وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ، وَجَعَلَ يَبْكِي بُكَاءً شَدِيدًا، حَتَّى رَقَّ لَهُ صَاحِبُهُ، فَطَفِقَ يَمْسَحُ عَلَى ظَهْرِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: «خَفِّضْ عَلَيْكَ (٣٤) يَا (قُظْنَ)، فَالْأَمْرُ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ يُثِيرَ دَمْعَكَ، أَتَبْكِي مِنْ لَطْمَةٍ خَفِيفَةٍ مِنْ يَدِ جَبَانٍ ضَعِيفٍ؟».

١٦ (قُظْنَ) يَكْشِفُ حَقِيقَتَهُ (لِلْحَاجِ عَلِيٍّ):

فَرَفَعَ (قُظْنَ) إِلَيْهِ رَأْسَهُ قَائِلًا وَقَدْ تَقَلَّصَ دَمْعُهُ: «سَامَحَكَ اللَّهُ، أَتُظُنُّ بَكَائِي مِنْ تِلْكَ اللَّطْمَةِ؟ إِنْ بَكَائِي مِنْ لَعْنِ أَبِي وَجَدِّي، وَهَمَّا خَيْرٌ مِنْ أَبِيهِ وَجَدَّهُ».

- «لَا يَدْفَعَنَّكَ الْغَضَبُ أَنْ تَقُولَ مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقٍّ يَا (قُظْنَ)، أَنْتَ وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْهُ أَلْفَ مَرَّةٍ، أَمَا أَبُوكَ وَجَدُّكَ فَلَيْسَا بِخَيْرٍ مِنْ أَبِيهِ وَجَدَّهُ الْمُسْلِمِينَ؛ إِذْ شَرَفَ الْإِسْلَامَ فَوْقَ كُلِّ شَرَفٍ».

- «أَتُظُنُّ أَبِي وَجَدِّي كَافِرَيْنِ؟ لَا وَاللَّهِ إِنَّهُمَا لِمُسْلِمَانِ مِنْ آبَاءِ مُسْلِمِينَ».

فَأَظْهَرَ الْحَاجُّ (عَلِيُّ الْفَرَّاشُ) اسْتِغْرَابَهُ كَمَنْ يَشُكُّ فِي صِدْقِ مَا يَقُولُ، فَعَزَّ عَلَى (قُظْنَ) أَنْ يَظُنَّ بِهِ صَدِيقَهُ الْكَذِبَ، فَاذْفَعَ يَقُولُ: «أَلَمْ تَسْمَعْ يَا حَاجُّ بـ(جَلَالِ الدِّينِ) بِنِ (خَوَارِزْمِ شَاهِ) الَّذِي جَاهَدَ التَّتَارَ؟»

- «بَلَى.. لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَحَدٌ لَمْ يَسْمَعْ بـ(السُّلْطَانَ جَلَالِ الدِّينِ)».

- «فَأَنَا ابْنُ (جِهَانَ خَاتُونِ) أُخْتِ (جَلَالِ الدِّينِ)، وَوَالِدِي (الْأَمِيرُ مَمْدُودُ) ابْنِ عَمِّهِ، وَاسْمِي (مَحْمُودُ)، وَإِنَّمَا سَمَّانِي (قُظْنَ) لِلصُّوَصِ الَّذِينَ اخْتَطَفُونِي، فَبَاعُونِي، عَامَلَهُمُ اللَّهُ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ».

١٧ فِرَاسَةُ (الْحَاجِ عَلِيٍّ) تَكْشِفُ حَقِيقَةَ (قُظْنَ) قَبْلَ أَنْ يَعْتَرِفَ بِهَا:

فَتَهَلَّلَ وَجْهُهُ (الْحَاجِ عَلِيٍّ) وَقَالَ: «الآنَ تَحَقَّقَتْ فِرَاسَتِي، وَصَدَقَ ظَنِّي فِيكَ. وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ حَدَّثَنِي قَلْبِي أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُكَ فِيهِ أَنَّكَ لَسْتَ مَمْلُوكًا جَلِيبَ مِنْ مَجَاهِلِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ وَأَنَّكَ تَرْجِعُ إِلَى أَصْلِ كَرِيمٍ. فَلَمَّا بَلَوْتُكَ (٣٥) وَاخْتَلَطْتُ مَعَكَ عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ سِرًّا تَكْتُمُهُ عَنِ النَّاسِ جَمِيعًا، فَحَدَسْتُ أَنَّكَ ابْنُ مَلِكٍ أَوْ أَمِيرٍ نَكَبَهُ الزَّمَانُ، فَأَلْقَاهُ فِي أَيْدِي بَاعَةِ الرِّقِيقِ، فَمَا زِلْتُ مِنْ يَوْمِئِذٍ أَجْتَهُدُ فِي مَعْرِفَةِ سِرِّكَ، وَقَدْ سَأَلْتُكَ مَرَارًا عَنْ أَصْلِكَ، فَكُنْتُ تَقُولُ لِي إِنَّكَ لَا تَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئًا، وَلَكِنِّي رَجَحْتُ آخِرَ الْأَمْرِ أَنَّكَ مِنْ أَوْلَادِ (جَلَالِ الدِّينِ بِنِ خَوَارِزْمِ شَاهِ). فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ (قُظْنَ) مُسْتَعْرِبًا، وَسَأَلَهُ:

(٣٤) خَفِّضْ عَلَيْكَ: هَوَّنْ عَلَى نَفْسِكَ.

(٣٢) جَذْوَةٌ: قِطْعَةٌ نَارٍ.

(٣٠) اسْتَشَاطَ: احْتَرَقَ.

(٣٥) بَلَوْتُكَ: اخْتَبَرْتُكَ.

(٣٣) يَنْبَسُ: تَتَحَرَّكُ شَفَتَاهُ.

(٣١) مُتَّقِدَتَيْنِ: مُشْتَعِلَتَيْنِ.

- «هل عرفت ذلك قبل أن أخبرك الآن؟!» .
- «إي والله قبل أن تخبرني بزمانٍ طويل» .
- «شيءٌ لعمرُ الله عجيبٌ، كيف عرفت ذلك يا (حاجُّ عليٍّ)؟» .
- «لما رجحَ عندي أنك من أولادِ الملوكِ أو الأُمراءِ جعلتُ أقصُ عليك من أنبايهم، وأختبرُ أثرَ حديثي في وجهك كُلِّما ذكرتُ ملكًا من الملوكِ أو أميرًا من الأُمراءِ، فكننتُ إذا ذكرتُ (جلالَ الدين) عندك ووقائعَه مع التتارِ، ألمحُ تغييرًا في وجهك، **واختلاجًا^(٣٦)** في شفَتَيْكَ، وقد كررتُ هذه التجربةَ فأيقنتُ أن لك صلةً بـ(جلالِ الدين)، ورجَّحتُ أنك من أولادِهِ» .
- فتبسَّم (قُظن)، وعجِبَ من ذكاءِ صاحِبِه الحاجِّ وفطنته وقال له:
- «الآن عرفتُ لماذا كنتُ مُغرَى بأخبارِ الملوكِ والسلاطينِ، تُعيدها عليٌّ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ» .

١٨ (قُظن) يَطْلُبُ حَلًّا لِمَشْكَلَتِهِ مِنْ (الْحَاجِّ عَلِيٍّ):

وسكتَ (قُظن) قليلًا ثم ما لبثَ أن عاودته سُجُونُه، فقال بصوتٍ يُخالطُه البكاءُ: «بالله يا صديقي الحاجُّ ألا ما أشرتُ عليَّ ماذا أصنعُ في مُصابي هذا؟ فإنك ما علمتُ لُدوراي، إنهم أبطلوا وصيةَ مولاي -رَحِمَهُ اللهُ- بعتي وعتي حبيبتي جُلنار، ولم يكتفوا بذلك حتَّى فرَّقوا بيني وبينها، فباعوها لرجلٍ من (مصر)، إي والله، لقد فرَّقوا بيني وبين (جلنار) ابنةِ خالي (جلالِ الدين) التي أحبُّها وتُحِبُّني، ونشأتُ مَعَهَا مُنذ الصَّغَرِ، ولم أفترقَ عنها إلا اليومَ، قُل لي كيف آوى إلى هذا القصرِ وقد فارقه مولاي الشيخُ الذي أكرَمَ منوأي وتبَنَّاني، وخَلَا مِنْ (جلنار) التي كانتُ سلوأي في هذه الحياةِ، وعزائي في كُلِّ ما أصابني من نكباتِ الأيام؟ كيف أصبرُ على خدمةِ ذلك **الوَعْدِ^(٣٧)** اللئيم الذي سلبني حُرِّيَّتي وسعادتي، وأمَعَنَ في اضطهادي وإهانتِي؟ إنَّ هذا القصرَ أصبحَ عندي كالجحيمِ، لا أطيقُ رؤيته، فما بالُ الإقامةِ فيه؟ ما لهؤلاءِ يَسْتَعْبِدُونِي وقد ولدتني أُمِّي حُرًّا؟ أليس في الأرضِ مِنْ عَدَلٍ يَنْصِفُنِي مِنْ هذا الظُّلمِ؟ ما لي أراك صامتًا يا (حاجُّ عليٍّ)؟ تكلم، قل لي ما أصنعُ في أمري؟» . وهنا غلبه البكاءُ، فعاقه عن المضى في الكلام.

١٩ (الْحَاجُّ عَلِيٌّ) يُفَكِّرُ فِي إِنْقَازِ (قُظن):

سكتَ (الحاجُّ عليٌّ) برهةً كأنه يفكرُ في طريقةٍ لخلاصِ صديقه، أو في جوابٍ يُقنعه ويُرضيه، ثم قال له: «ولكن في القصرِ سيِّدَتُكَ العَجُوزُ، وهِيَ تُحِبُّكَ وتُعزُّكَ، ولَنْ ترضى أبدًا أن يمَسَّكَ مِنْ (مُوسى) أى سوءٍ» .

فقال له (قُظن): «نَعَمْ، إنَّها تُحِبُّني وتُعزُّني وتعتبرني كَوَلدِها، وَقَدْ وعدتني أن تجعلني حين تُقسَمُ التركةُ من نصيبها فتعتقني، ولكنها ضعيفةٌ لا حولَ لها ولا قوةَ، وقد غلبها ابنها عليٌّ كُلَّ شيءٍ، ولا تقدرُ عليَّ صَدَه أو منعه مما يريدُ. إنِّي أخشى أن أقعَ في ملكِ يمينِ موسى، فينتقمَ مني، ويُبَالِغَ في إهانتِي وتعذيبِي، خلصني يا (حاجُّ عليٍّ)، خلصني!» !

- «اللهُ يَخْلُصُك يا بُنَى.. هُوَ عَلِيكَ يا (قُظن) فَسَيَجْعَلُ مِنْ ضَيْقِكَ مَخْرَجًا» .

- «دَعْنِي مِنْ كَلِمَاتِ المَواساةِ والتَّهوينِ والتَّعليلِ، فإنَّها لا تنفعني شيئًا، وفكَّر لي في طَريقَةٍ للخلاصِ مما أنا فيه مِنَ العذابِ» .

(٣٧) الوعد: الأحمق، الجمع: الأوغاد.

(٣٦) اختلاجًا: اضطرابًا.

- «لقد فكّرتُ لك في طريقةٍ للخلاصِ مما أنت فيه من العذابِ، ولكنْ عليك أنْ تصْبِرَ يومينِ أو ثلاثة أيامٍ ريثماً^(٣٨) أدبّر هذه الطريقةَ».

- «سأصبرُ لك أكثرَ من ذلك، فقلْ لي بالله ما هي؟».

- «سأقصُّ على سيدي (ابنِ الزعيم) خبرك؛ فسيسْتَأقُ لرؤيتك حينَ يعرفُ أنّك من أولادِ (السُّلطانِ جلالِ الدين)، فقد كان مع شيخه (ابن عبد السلام) كثيرَ الاهتمامِ بنجدةِ (جلالِ الدين) في جهادهِ للتتارِ، فإذا قابلتهُ فسأذكرُ له طرفاً من حالِ (موسى ابنِ الشيخِ غانم) معك واضطهادِه لك، وسأعزز^(٣٩) قولك عنده، فأقصُّ عليه ما وقعَ منه اليومَ في حقِّك على مرأى مني ومسمعٍ، وما أشكُّ في أنّه سيرثي لحالك^(٤٠) ويعطفُ عليك، فأشيرُ عليه عندئذٍ بشرائك منهم، وما أحسبه يتأخر عن ذلك. وأعلمُ أنّك ستسعدُ في خدمةِ سيدي (ابنِ الزعيم)، وسيكونُ لك مثلُ المرحومِ (الشيخِ غانم) أو خيراً منه».

- «حسبي أنْ أعيشَ بجوارك يا صديقي الحاجّ، ولكنّي أخشى ألا يرضى (موسى) ببني لسيدك إذا علم أنّي سأسعدُ عنده».

- «لنْ ندعَ (موسى) يعلمُ بشيءٍ من هذا، وسيطلبُك سيدي بنفسه من الوصيِّ، ولنْ يتردّدَ الوصيُّ في إجابةِ طلبه، فاطمئنْ ولا تحفّ شيئاً، فسأدبّرُ لك كلَّ شيءٍ تديبّرُ متقناً».

- «بارك الله فيك يا (حاجّ علي)، لقد فرجتَ كربتي، فرج الله كربك يومَ القيامةِ».

وقام (قطن) عن مقعده من المصطبة قائلاً: «دعني أنصرف، فأرجع إلى عملي في القصر، لعلّ مولاتي تحتاجني، فقد أبطأت عليهن في الرجوع، وغداً أراك إن شاء الله».

(٤٠) سيرتي لحالك: سيعطف عليك.

(٣٨) ريثماً: حتّى، إلى أن.

(٣٩) أعزز: أقوى.



عرض الأحداث

١ انتقال (قطر) إلى قصر سيده الجديد (ابن الزعيم):

لم تَمْضِ ثلاثة أيام على مَا سَبَقَ، حتى أتمَّ (الحاجُّ علىُّ الفراش) الخطة التي دَبَّرَهَا لِخَلَاصِ صَدِيقِهِ، فَنَجَحَتْ على خَيْرِ وَجْهِ، وانتقلَ (قطرٌ) إلى مَلِكِ السَّيِّدِ (ابن الزعيم)، فسَلا ما كان فِيهِ مِنَ البَلاءِ بِموسَى ومضايقاتِهِ، وانطوتْ صفحةٌ من حَيَاتِهِ، شَيَّعَهَا بِدُمُوعِهِ وَحَسْرَاتِهِ، فقد كانتْ على عِلَاتِهَا^(١) مِنْ أَجْمَلِ أَيامِ عُمُرِهِ وَأَسْعَدِهَا؛ إذ أَشْرَقَ فِيهَا الحُبُّ على قَلْبِهِ، فَمَلَأَهُ نُورًا، وأتى على ما في زَوَايَاهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الهَمِّ والحُزنِ واليأسِ، فَبَدَّدَهُ وأبَدَلَهُ به مَسْرَةً وَجَدلاً وَغِبْطَةً وَأَملاً. كان يَعْيشُ فِيهَا مَعَ (جلنار) فِي دَعَاةٍ وَسَلامٍ، مَشْمُولِينَ بِرِعايَةِ مَولاهُما الرَّحِيمِ وزَوجَتِهِ البَارَّةِ، وقد ذاقا فِيهَا مِنَ لَذَّةِ الأَمْنِ وطُمَأْنِينَةِ الاستِقرارِ ما لم يَذُوقاه منذُ طُفُولَتِهِمَا، فقد عاشا ما عاشا قَبْلَ ذلكِ فِي جِوِّ مُضْطَرَبٍ، يَسُودُهُ القَلْبُ والفَزَعُ، وتُهَدِّدُهُ الحُروبُ والغاراتُ، وتُراوِحُهُ^(٢) وتُغادِيهِ^(٣) الفُجائِعُ^(٤) والنَّكَبَاتُ، حتى اسْتَقَرَّ بِهِمَا المَقامُ فِي كَنَفِ (الشيخِ غانمِ)، فَلَقِيَا مِنْ عَطْفِهِ وَبِرِّهِ ما أَنساها مَرارَةَ اليَتيمِ، وذُلَّ الرِّقِّ، وألمِ التَّغْرُبِ والتَّشَرُّدِ، وَنِعْمًا بِعَيْشَةٍ راضِيَةٍ أَمْنَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ، وكانَ أَكْبَرَ نِعْمَةٍ تَمَّتْ عليهما عِنْدَهُ، نِعْمَةُ الحَبِّ.

٢ (قطر) تُعاوِدُهُ الأَحْزانُ على فِراقِ (جلنار):

لم يَكُنْ (قطرٌ) يَسْكُنُ إلى كَنَفِ مَولاهُ الجَدِيدِ، وَيَسْتَرِيحُ قَلْبُهُ مِنْ عَنَتِ (موسى) واضطهادِهِ حَتَّى تَذْكَرَ فِراقَ (جلنار)، فَذَهَبَتْ نَفْسُهُ حَسْرَاتٍ فِي أَثَرِ حَبِيبَتِهِ الدَّاهِبَةِ، وَشَفَّهَ الوَجْدُ^(٥) والحَنِينُ حَتَّى اصْفَرَ وَجْهُهُ، وَنَحَلَ جَسْمَهُ، وَتَقَرَّحَتْ مُقَلَّتَاهُ مِنْ طَولِ السَّهْرِ والبِكا، كَأَنما كانَ مَشْغُولًا عَنِ الأَلَمِ فِراقِها بما كانَ يُكابِدُهُ مِنَ المِحَنِ بِ(موسى)، فلما سَلا هِذِهِ المِحْنَةَ وَتَنَفَّسَ الصُّعْداءُ^(٦) فِي قُصْرِ سَيِّدِهِ الجَدِيدِ، فَرَّغَ لِمِحْنَتِهِ الكُبْرَى بِفِراقِ حَبِيبَتِهِ (جلنار)، وَكَذلكِ قَدِ تَنَزَّلَ بِالمِرِّ مُصِيبَتانِ فَيَضِيقُ بِصُغْرَاهِما وَتَشْغَلُهُ عَنِ كُبراهِما حَتَّى يَظُنَّ أَنَّهُ قَدِ سَلاها، فَمَها هِيَ إِلاَّ أَنَّ تَنْقِشِعَ الصُّغْرَى، فَإِذا الكُبْرَى تَعوَدُ مِنَ جَدِيدٍ فَتُطَبِّقُ على قَلْبِهِ.

٣ (ابن الزعيم) يُكْرِمُ (قطر) وَيُوصِي خادِمَهُ الحاج (عليًا) بِمَواَساتِهِ:

رَقَّ السَيِّدُ (ابنُ الزعيمِ) لِحالِ مَمْلوكِهِ الأَميرِ الخُوارزميِّ، فَبالَغَ فِي تَكرِمَتِهِ والبَرِّ بِهِ، وَاجتَهَدَ أَنْ يَصْرِفَهُ عَنِ لَوَعِيَتِهِ وَحُزْنِهِ، فَكانَ يُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ لَهُ: «كَفاكَ يا بُنَيَّ حُزْنًا على حَبِيبَتِكَ الحَسَناءِ (جلنار)، فَإِنَّ شَتَّ زَواجِكَ جَاريَةً مِثْلَها، أو أَجْمَلَ مِنْها». فَيُجِيبُهُ (قطرٌ) فِي أَدَبٍ جَمِّ: «لا يا مَولاي، لا أَرعِبُ فِي الزَواجِ مِنْ غَيرِها، وَإِنْ تُكُنْ أَجْمَلَ مِنْها، إِنَّها ابْنَةُ خالِي، نَسأُنا مَعًا وَلَمْ نَفترِقْ منذُ وُلِدْنا». فيقولُ لَهُ سَيِّدُهُ: «إِنَّكَ لَعلى حَقٌّ يا (قطر)؛ إِذْ لَيسَ فِي وَسْعا أَنْ نَزَواجَكَ أَميرَةً مِثْلَ ابْنَةِ (جلالِ الدَّينِ)، وَلَكِنِّي أَنصَحُكَ أَنْ تَجتَهَدَ فِي سُلوانِها^(٧) إِشفاقًا على نَفْسِكَ، وإِبقاءً على صِحَّتِكَ وَشَبابِكَ، وَاصْبِرْ لِعَلَّ اللهُ يَجْمَعُ شَمْلَكُما مِنْ حَيْثُ لا تَحْتَسِبانِ».

(١) علائها: المراد: سوء أحوالها.

(٢) تراوحوه: تأتيه مساءً.

(٣) تغاديه: تأتيه صباحًا.

(٤) الفجائع: المصائب، المفرد: الفجيعة.

(٥) الوجد: الحزن.

(٦) تنفس الصعداء: تنفس مع توجع، المراد: استراح.

(٧) سلوانها: نسيانها.

وأوصى (ابن الزعيم) خادمه (الحاج علياً الفراه) بالألأ يألو جُهْدًا فى العنافة بـ(قطن) وَتَسْلِفِة هَمَّه، ولم يكن (الحاج على) بِحَاجَةٍ إلى وَصِيَّة سِده بَصْدِيقه الحميم، فلم يَدْعُ وسِلةً من الوسائل لِتَسْلِفِة وَتَغْرِيفِة إِلَّا اسْتَعْمَلَهَا، وكان (الحاج على) لبق الحديث، حَسَنَ التَّصْرِيفِ، خبيرًا بأدواء القلوب، عليمًا بعلاجها، فما زال بَصْدِيقه الحزين، يَقْبِضُه وَيَبْسُطُه، وَيُسْلِفُه وَيُعَلِّله، وَيَضْرِبُ له الأمثال فى ذلك، وَيَتَنَزَّهُ به فى صَوَاحِ المدينة ورياضِ العَوْطَةِ، وَيَزُودُ^(٨) به زحمة الأسواق، وَيَغْشَى به مجالسَ العلم فى المسجد حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يَكْسِرَ سُورَةَ^(٩) الحزن فى قلبه، ووكَّلَ الباقي إلى الأيام لتقضى عليه.

٤ تَعَلَّقَ (قطن) بالعِبادَة وَمَجَالِسِ العِلْمِ والعُلَماءِ:

أَحَدَتِ المملوكُ الشَّابَّ عَقِبَ ذلك جَذْبَةً إلهيةً، فَتَعَلَّقَ قلبه بالعِبادَة وَالتَّقْوَى، فَكَانَ يُصَلِّى الفُرُوضَ لأوقاتها، وَيُحَافِظُ على النِّوَافِلِ^(١٠)، وَأَكْثَرَ من تلاوة القرآن، وَتَرَدَّدَ على مجالسِ العلم فى جامع المدينة، ولا سِما دروسُ الشيخ (ابن عبد السلام)، فقد أُعْرِمَ بها؛ فَكَانَ لا يَمُوتُه دَرْسٌ، ولم يَتَّصِدْ للقراءة عليه، أو على غيره من العلماء، بل كان يكتفى بالحضور والاستماع، وكان سيده ابن الزعيم يُشجِّعُه على ذلك، وَيُثْنِى عليه، وما كَلَّفَه قَطُّ عملاً يَحُولُ بينه وبين حضور هذه المجالس.

٥ تَعَرَّفَ الشيخ (العزبن عبد السلام) على (قطن) وَتَوَطَّدَ الصِّداقةَ بينهما:

وَجاءَ الشيخُ يومًا إلى دار (ابن الزعيم) يَرُورُه، فَأَكْرَمَه واحتفلَ به، فلَمَّا اسْتَقَرَّ بهما المجلسُ دخلَ (قطن) عليهما بشرابِ الوَرْدِ لِيُقَدِّمَه للشيخ، فلَمَّا رَأه الشيخُ التفتَ إلى مُصِيفِه، وقال له: «مَنْ هَذَا الشَّابُّ؟ أَحْسَبُنِي رَأَيْتُه مَرَّةً فى حَلْفَةِ الدَّرْسِ». فأجابَه (ابن الزعيم): «هذا مَمْلُوكٌ كان لجارِى (الشيخ غانم) رَحِمَه اللهُ، اشْتَرَيْتُه قَرِيبًا، وَهُوَ يُحِبُّكَ يا سَيِّدِى وَيَحْضُرُ دُرُوسَكَ، وَيَسْتَمِعُ إِلَيْكَ».

قال الشيخُ وَهُوَ يَتَفَرَّسُ^(١١) فى وجهِ (قطن): «إِنَّه ما عَلِمْتُ لشابًّا صالحًا».

فقالَ (ابن الزعيم): «أَجَلْ إِنَّه صالحٌ ومن أصلِ كريمٍ».

وكان الشيخُ قد فرَغَ مِنْ شرايِه عندَ ذلك، فَرَدَّ الكأسَ إلى سَاقِيِه، فانصَرَفَ وَقَدَ حَجَلَ من نِئاءِ الشيخِ عليه. وَمَضَى (ابن الزعيم) يُحَدِّثُ صَفيَه الكريمَ بِخبرِ مَمْلُوكِه، وأنه من بيتِ السُّلطانِ (جلال الدين بن خوارزم شاه)، وأنَّ اللُّصُوصَ اختطفوه وابنةَ السُّلطانِ وهما صَغيرانِ فباعوهما فى سوقِ (حلب)، وأنَّ الشيخَ (غانم المقدسى) اشتراهما فرباهما إلى آخرِ قِصَّتِيهما. فَعَجِبَ الشيخُ مِنْ هذا الحديثِ، وتلا قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مَمَّن تَشَاءُ وَنُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَنُزِّلُ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (*).

فقالَ (ابن الزعيم): «إِنِّى ما اشترَيْتُه إلا لأُعْتِقَه، ولولا حُبِّى له وَخَشْيَتِي أَنْ يَفارِقَنِي فَتَضِيقَ به سُبُلَ الحِياةِ لأَعْتَقْتُه من قَبْلِ».

فقالَ الشيخُ: «شَكَرَ اللهُ لك يا (ابن الزعيم) جَمِيلَ صُنْعِكَ فِيه. إِنَّ (جلال الدين) لَحَرِيٌّ^(١٢) أَنْ تَحْفَظَه فى وِليده.. أَلَا تَدْعُوهُ فأراه قَبْلَ أَنْ أَنْصَرَفَ؟».

فقامَ (ابن الزعيم) وعادَ بـ(قطن) معه، وَقَدَّمَه للشيخِ فتلَقَّاه بالبشرِ، وطَيَّبَ خاطرَه، وأقعدَه قَرِيبًا مِنْه، وقالَ له: «إِنَّ (جلال الدين) كان حَبِيبًا إلى نَفْسِنَا؛ إِذْ كانَ يُجَاهِدُ التتارَ، وَيُدافعُهُم عن بلادِ الإسلامِ، وَأنتَ ابنُ أُخْتِه وَلَكَ عندنا مَنْزِلَةٌ وَحُرْمَةٌ، وَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ إِذْ أَفْضَى بِكَ إلى كَنَفِ هَذَا السَّيِّدِ وَهُوَ من الصَّالِحِينَ المِجَاهِدِينَ، لا غِصَاظَةَ على مُسْلِمٍ فى خِدْمَةِ مِثْلِه، وَسَيُعْتِقُكَ وَيُحْسِنُ إِلَيْكَ..».

(*) الآية ٢٦ - آل عمران.

(١٢) لحرى: لجدير.

(١٠) النوافل: السنن.

(١١) يتفرس: يتأمل.

(٨) بروذ: يطوف.

(٩) سورة: شدة.

فَقَبَلَ (قطز) يَدَ الشَّيْخِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ يُخَالِطُهُ البُكَاءُ لِمَا تَأَثَّرَ بِهِ مِنْ كَلَامِهِ: «أَنَا مَمْلُوكٌ سَيِّدِي (ابن الزعيم) وَعَبْدٌ إِحْسَانِهِ، لَا أَحِبُّ أَنْ يَعْتَقِنِي، وَلَا أُرِيدُ أَنْ يَحْرِمَنِي شَرَفَ خِدْمَتِهِ».

فَقَالَ (ابن الزعيم): «بَلْ أَنْتَ وَلَدِي يَا (قُطْز)، وَنَحْنُ جَمِيعًا خُدَّامُ الدِّينِ وَخُدَّامُ الشَّيْخِ (ابن عبد السلام)». كَذَلِكَ عَرَفَ الشَّيْخُ (ابن عبد السلام) (قُطْز)، فَصَارَ يُدْنِيهِ مِنْ مَجْلِسِهِ إِذَا حَضَرَ لاسْتِمَاعِ الدَّرْسِ، وَيَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَيَسْأَلُهُ عَنْ سَيِّدِهِ (ابن الزعيم) وَيُحَمِّلُهُ تَحِيَّتَهُ، وَأحيانًا يَبْعَثُ بِرِسَالَةٍ إِلَيْهِ، وَسُرْعَانَ مَا وَثِقَ بِهِ سَيِّدُهُ وَالشَّيْخُ؛ لِمَا رَأَى فِيهِ مِنْ رَجَاحَةِ العَقْلِ، وَحَصَافَةِ^(١٣) الرِّأْيِ، وَكَمَالِ الرُّجُولَةِ، وَالاضْطِلَاعِ بِمَهَامِّ الأُمُورِ. فَأَتَمَّنَاهُ عَلَى أَسْرَارِهِمَا، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يَقُولُ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ كَلَامٍ لِيُبَلِّغَهُ لِلآخِرِ لَا يَأْتَمِنَانِ أَحَدًا غَيْرَهُ عَلَيْهِ، مِنْ أُمُورٍ تَتَّصِلُ بِحَرَكَتَيْهِمَا السِّيَاسِيَّةِ أَوِ الإِصْلَاحِيَّةِ، لَا فِي (دَمَشَقَ) وَحَدَاها بَلْ فِي سَائِرِ بِلَادِ الشَّامِ وَغَيْرِهَا مِنَ البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ.

٦ سِيَاسَةُ الشَّيْخِ (العز بن عبد السلام) وَالهِدْفُ مِنْهَا:

فَعَرَفَ (قُطْز) فِي هَذِهِ المَدَّةِ القَصِيرَةِ الَّتِي قَضَاهَا فِي خِدْمَةِ (ابن الزعيم) كَثِيرًا مِنْ أحوالِ العَالِمِ الإِسْلَامِيِّ إِذْ ذَاكَ وَأحوالِ مُلُوكِهِ وَأَمْرَائِهِ وَالْحَزَارَاتِ^(١٤) الَّتِي بَيْنَهُمُ وَالْمَنَافِسَاتِ عَلَى المُلْكِ، وَموقِفَ كُلِّ مِنْهُمُ مِنْ مُعَادَاةِ الصَّلِيبِيِّينَ أَوْ مُوَالَاةِهِمْ، وَأَدْرَكَ السِّيَاسَةَ الَّتِي كَانَ الشَّيْخُ وَأَنْصَارُهُ يَنْتَهِجُونَهَا، وَالمرمى الَّذِي يَرْمُونَ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِ بِلَادِ الإِسْلَامِ وَتَكْوِينِ جَبْهَةٍ قَوِيَّةٍ مِنْ مُلُوكِ الإِسْلَامِ وَأَمْرَائِهِ لَطْرُدِ الصَّلِيبِيِّينَ مِنَ البِلَادِ الَّتِي يَحْتَلُونَهَا فِي الشَّامِ، وَلِصْدِّ غَارَاتِ التَّتَارِ الَّتِي تُهَدِّدُهُمْ مِنَ الشَّرْقِ. وَقَدْ اقْتَضَتْ هَذِهِ السِّيَاسَةُ أَنْ تَخَصَّ بِالمَنَاصِرَةِ وَالتَّيْئِيدِ أَقْوَى مُلُوكِ المُسْلِمِينَ وَأَصْلَحَهُمْ لِلِاضْطِلَاعِ بِهَذِهِ المَهْمَةِ الكُبْرَى مِمَّنْ لَا يَمِيلُونَ إِلَى مُوَالَاةِ الصَّلِيبِيِّينَ أَوْ مُصَانَعَتِهِمْ^(١٥)، وَأَنْ تَسْعَى لِلقَضَاءِ عَلَى مَنْ يُوَالِيهِمْ أَوْ يَخْضَعُ لِنُفُوذِهِمْ مِنْ المُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ. فَكَانَ المَلِكُ الصَّالِحُ (نَجْمُ الدِّينِ أَيُوبُ) صَاحِبُ مِصرَ عَلَى رَأْسِ الفَرِيقِ الأَوَّلِ، وَكَانَ عَلَى رَأْسِ الفَرِيقِ الثَّانِي عُمَةُ المَلِكِ الصَّالِحِ (عِمَادُ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ) صَاحِبُ (دَمَشَقَ)، وَكَانَ العَدَاءُ بَيْنَ هَذَيْنِ مُسْتَحْكَمًا، وَالتَّنَافُسُ بَيْنَهُمَا شَدِيدًا عَلَى المُلْكِ، فَلَا عَرُونَ يُوَالُوا مَلِكَ مِصرَ وَيَدْعُونَ لَهُ، وَيُعَادُوا مَلِكَ (دَمَشَقَ) وَيَعْتَبِرُونَهُ خَائِنًا للإِسْلَامِ.

٧ تَحْرِيسُ الشَّيْخِ (العز بن عبد السلام) لِلْمَلِكِ (الصالح) لِتَطْهِيرِ الشَّامِ:

وَكَانَ (الشَّيْخُ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ) يُرَاسِلُ المَلِكَ (الصالح أَيُوبَ)، وَيُحَرِّضُهُ عَلَى تَطْهِيرِ بِلَادِ الشَّامِ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ أَسْوَةً بِجَدِّهِ المَجَاهِدِ العَظِيمِ السُّلْطَانِ (صَالِحِ الدِّينِ)، وَيَعِدُّهُ بِمَنَاصِرَةِ عَامَّةِ أَهْلِ الشَّامِ، فَيَتَلَقَّى رُدُودًا مِنْهُ يَعِدُّهُ فِيهَا بِالقِيَامِ بِذَلِكَ عِنْدَمَا تَسْنَحُ الفُرْصَةُ وَتَتِمُّ الأُهْبَةُ^(١٦)، وَقَدْ عَلِمَ (الصالحُ إِسْمَاعِيلُ) بِحَرَكَةِ (ابن عبد السلام)، فَأَرَادَ القَبْضَ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ خَشِيَ أَنْصَارَهُ أَنْ يَثُورُوا لَهُ فَيُؤَلَّبُوا^(١٧) العَامَّةَ عَلَيْهِ، فَأَجَلَ ذَلِكَ إِلَى حِينٍ.

٨ عَزْمُ (عِمَادِ الدِّينِ إِسْمَاعِيلِ) عَلَى غَزْوِ (مِصرَ):

وَقَوِيَ عَزْمُ (الصَّالِحِ أَيُوبَ) عَلَى المَسِيرِ إِلَى الشَّامِ، فَاشْتَدَّ خَوْفُ (الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ)، وَعَزَمَ عَلَى غَزْوِ (مِصرَ) قَبْلَ أَنْ يَغْزُوا مَلِكُهَا بِلَادَهُ، فَبَعَثَ إِلَى أَمِيرِ (حِمَصَ) وَ(حَلَبَ) يَطْلُبُ مِنْهُمَا النُّجْدَاتِ، وَكَاتَبَ الفِرْنَجَ وَاتَّفَقَ مَعَهُمْ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ وَالمَسِيرِ مَعَهُ لِمُحَارَبَةِ سُلْطَانِ (مِصرَ)، وَأَعْطَاهُمْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ قَلْعَتَيْ (صَفَدَ) وَ(الشَّقِيفَ) وَبِلَادَهُمَا، وَ(صَيْدَا) وَ(طَبْرِيَّةَ) وَأَعْمَالَهَا وَسَائِرِ بِلَادِ السَّاحِلِ، وَمَا اكْتَفَى بِذَلِكَ حَتَّى أَذِنَ لَهُؤُلَاءِ الأَعْدَاءُ فِي دُخُولِ دَمَشَقَ، وَشِرَاءِ الأَسْلِحَةِ وَآلَاتِ الحَرْبِ مِنْ أَهْلِهَا.

(١٧) يُؤَلَّبُوا: يَجْرُسُوا.

(١٥) مِصَانَعَةُ: مَلَانِيئَةُ.

(١٣) حِصَافَةُ: جُودَةُ وَإِحْكَامُ.

(١٤) الحِزَارَاتُ: العِدَاوَاتُ، المِفرِدُ: الحِزَاةُ. (١٦) الأُهْبَةُ: العُدَّةُ.

خطبة ثورية للشيخ (العز بن عبد السلام) للجهاد في سبيل الله:

وأدرك (الشيخ ابن عبد السلام) الخطر الذي يتهدد بلاد الإسلام من هذا الخطب الفادح، فكتب رسالة قوية إلى (الصالح أيوب) يحثه فيها على التعجيل بالجهاد، ويتوعدده فيها بغضب الله ونقمته وعذابه إذا تهاون في المسير حتى يتم ما أرادته أعداء الإسلام به، مؤكداً له أن تبعه ذلك ستكون على رقبته إذا قصر فيما أوجب الله عليه، وأنذرته بضياع ملكه وخسارة دنياه وآخرته، وأخذ الشيخ يكثر الاجتماع بأنصاره ومريديه ويجمعهم ويأمرهم بالاستعداد للقيام بواجبهم من الجهاد في سبيل الوطن، وكان يفعل كل هذا في السر، حتى إذا كان يوم الجمعة وامتأ الجامع الكبير بالناس، دخل الشيخ ابن عبد السلام من الباب الخاص بالخطيب فرقى المنبر فتطلعت إليه العيون، واشربأت إليه الأعناق، وساد الحاضرين صمت عميق كأنما على رؤوسهم الطير، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم ذكر الجهاد وفضائله وكيف كان النبي ﷺ وأصحابه يجاهدون المشركين حتى علت كلمة الله، وبلغت دعوة الإسلام إلى المشرق والمغرب وأورث الله المسلمين البلاد، وجعلهم خلفاء الأرض ما قاموا بالدين واستقاموا على طريقته، فلما غيروا ما بأنفسهم غير الله عليهم فسلب الأعداء على بلادهم ينتقصون أطرافها، ويستأثرون بخيراتها، ويسومون أهلها (١٨) الخسف (١٩) والهوان، ويذيقونهم ألوان العذاب، ابتلاءً من الله ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ (٢٠) * وأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، ولم يصلح أولها إلا الجهاد في سبيل الله، ثم ذكر ما أوجب الله على المسلمين من طاعة أولى الأمر منهم، ليستقيم بهم أمر معاشهم ومعادهم (٢١)، وما أوجب على أولى الأمر من النصح للإسلام وأهله، والقيام بحماية بلادهم وسد ثغورهم (٢٢) حتى يأمّنوا على دينهم وأعراضهم وأنفسهم وأموالهم. ولما أخذ في الخطبة الثانية جعل يدعو الله أن يعز الإسلام وأهله، وأن ينصر من في بقائه صلاح المسلمين. وكان يدعو في آخر خطبته لـ (الصالح إسماعيل)، فقطع الدعاء له في هذه الخطبة، واكتفى بالدعاء لمن يعلى كلمة الإسلام وينصر دين الله. وفرغ الشيخ من خطبته، وأقيمت الصلاة، والناس لا يصدقون أنهم سمعوا ما سمعوه من (الشيخ) في خطبته؛ لشدة ما حمل على (الصالح إسماعيل)، وندد بفعلته في كلمات واضحة صريحة لا غموض فيها ولا إبهام.

إعجاب المسلمين بـ (الشيخ العز) وخوفهم على مصيره:

وانصرف الناس من الجامع، ولا حديث لهم إلا خطبة الشيخ (ابن عبد السلام) يفخر من سمعها على من لم يسمعها، ويود من لم يسمعها لو أنه خسر شطراً من عمره وسمعها، واتفق السامعون على الإعجاب بها، واختلفوا في وجه الإعجاب، فمن أعجب ببلاغة الشيخ، ومن أعجب بقوة حجته، ومن أعجب بطراد بيانه وتسلله، ومن أعجب بشجاعته ورباطة جأشه (٢٣). واتفق الناس في الإشفاق على مصيره، ولكنهم اختلفوا في تقدير ما يناله من عقوبة (الصالح إسماعيل)؛ فمن قاطع بأنه سيقتله، ومن ذهب إلى أنه سيحبسه، ومن مرجح أنه سينفيه ويصادر أملاكه، وآخر يرى أنه سيغزله عن الخطابة، ويشئت شمل (٢٤) أنصاره، على أنهم جميعاً آسفون؛ لأنهم لن يسمعوه يخطب على منبر جامعهم بعد ذلك اليوم.

اعتقال (الشيخ العز)، ثم الإفراج عنه لشعبيته:

وكان (الصالح إسماعيل) غائباً عن دمشق يومذاك، فكتب إليه بما كان من (الشيخ)، فورد كتابه بعزله من الخطابة والقبض عليه وحبسه، حتى يرجع إلى (دمشق) فيرى فيه رأيه. وكان أنصار الشيخ قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد (الصالح إسماعيل)، وأعدوا له وسائل الهرب، لكنه أبى ذلك، وألحوا عليه فأصر على الإباء، فعرضوا عليه أن يختبئ في مكان أمين لا يهتدي إليه الصالح إسماعيل ورجاله، فرفض هذا الاقتراح أيضاً وقال:

(٢٣) رباطة جأشه: قوة قلبه وشجاعته.

(٢٤) يشئت شمل: يفرق جمع.

(*) الآية ٤٢ من سورة الأنفال.

(٢١) معادهم: حياتهم الآخرة.

(٢٢) الثغور: المواضع التي يخاف منها هجوم الأعداء، المفرد: الثغر.

(١٨) يسومون أهلها: ينزلون بهم.

(١٩) الخسف: الذل.

(٢٠) بينة: حجة الجمع: بينات.

«والله لا أهرُب ولا أختبئ، وإنما نحن في بداية الجهاد، ولم نعمل شيئاً بعد، وقد وَطَّئْتُ نَفْسِي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل، والله لا يُضِيعُ عَمَلَ الصَّابِرِينَ».

وَقُبِصَ على الشيخ (ابن عبد السلام)، وُسِّجِنَ، وثاراً أنصاره فطالَبُوا بالإفراج عنه، وقد حاولَ (الصالح إسماعيل) قَمَعَ الثورة فلم يُفْلِحْ، فما وَسِعَهُ إلا أن يأمرَ بالإفراج عن الشيخ (ابن عبد السلام). ولكنَّ (الصالح إسماعيل) أَلَزَمَ (ابن عبد السلام) بملازمة داره، وبألا يُفْتِيَ، ولا يَجْتَمِعَ بِأَحَدٍ **أَلْبَتَّةً** (٢٥).

١٢ (قطز) يَتَحَفَّى في زِي حَلَاقٍ لِيَكُونَ رَسُولًا بَيْنَ الشَّيْخِ وَأَنْصَارِهِ:

فَشَقَّ على أنصاره أن يُحَالِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ للاسترشادِ بِأَرَائِهِ فيما يجبُ عليهم عمله، وفكَّرُوا في حيلةٍ للاتصالِ به، فإذا السَّيِّدُ (ابن الزعيم) قد أمرَ مملوكَه (قُطْز) أن يتعلَّم الحلاقةَ، وإذا (قطز) قد **حَدَّقَهَا** (٢٦) وتشبَّهَ بِالْحَلَّاقِينَ في زيه وحركته، ففرحوا بهذا الحلِّ الطريفِ، وبعثوا (قُطْز) فذهبَ إلى الشيخ في داره، فلم يشكَّ أحدٌ من مُراقبيه في أنه حلاقٌ قد جاءَ لِيُرَيِّنَ الشَّيْخَ، فلما دخل عليه لم يعرفِ الشَّيْخُ أنه (قُطْز) إلا من صوته فسُرَّبه. فبلَّغَه (قُطْز) أخبارَ سيده (ابن الزعيم) وغيره من أنصاره وما أصابَ بعضهم من عقوبةِ الملكِ (الصالح إسماعيل).

وكذلك تَرَدَّدَ الحلاقُ (قُطْز) على (الشيخ) فوصلَ بينه وبين أنصاره، يطلِّعُه على خُطَطِهِمْ وأعمالِهِمْ وسائر ما يهْمُه من أخبارِ البلادِ، ويبلغُهُم أوامره وإرشاداته فيقومون بتنفيذها، ولا يُبالون ما يُصيبُهُمْ في ذلك من قتل أو حبسٍ أو تعذيبٍ، وكانا رُبَّمَا انتهيا من حديثهما في السياسة فتبسَّطَ الشَّيْخُ إلى حلاقه، وتشقَّقَ بينهما الحديثُ في شئونِ شتَّى من هزل الحياةِ وجدِّها.

١٣ (قطز) يَرَى النَّبِيَّ ﷺ في المنام وَيَقْصُ رُؤْيَاهُ على الشَّيْخِ (العز):

وجاءَ (قُطْز) يوماً آخرَ مُتَهَلِّلاً وَجْهَهُ، طيَّبَ النفسِ، عليه أثرُ الاغتسالِ، والطَّيْبُ **يَنْفُحُ** (٢٧) من رأسه وثيابه، فسأله الشَّيْخُ مُلَاطَفاً: «ما هذا يا (قُطْز)؟ هل تزوجت البارحة؟».

فتبسَّم الشابُّ وقال: «لا يا مولاي الشَّيْخُ، لقد أقسمتُ ألا أتزوجَ إلا بابنةِ خالي (جلنار)، ولكنِّي رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ البارحة في المنام، فأخبرتُ سيدي فأمرني بالاعتسالي والتطيبِ فجئتُ كما ترى».

فقال الشَّيْخُ: «خيراً صنعتَ، وبخيراً أشارَ عليك سيديك، فحدَّثني عن رؤياك».

فخفق قلبُ الشابِّ وسرَّتْ في جسمه رعدةٌ كأنه يتهيَّبُ أن يقصَّ رؤياه على الشَّيْخِ العظيمِ، ولكنه رأى طلاقةَ وجهِ الشَّيْخِ وإقباله عليه فشجَّعه ذلك على الحديثِ فقال: «أرقتُ البارحةَ **ونابني** (٢٨) ضيقٌ شديدٌ، فقامتُ فتوضأتُ وصلَّيتُ النَّوْلَ وأوترتُ، ودعوتُ الله، ثم عدتُ إلى فراشي فغلبتني عيناي، ورأيتُ كأنِّي ضللتُ طريقي في **بريةٍ قفراءٍ** (٢٩) فجلستُ على صخرةٍ أبكى، وبينما أنا كذلك إذا **بكوكبةٍ** (٣٠) من الفُرسانِ قد أقبلتُ، يتقدمها رجلٌ أبيضٌ جميلُ الوجهِ، على رأسه **جمَّةٌ** (٣١) تضربُ في أذنيه، فلما رأني أشارَ لأصحابه، فوقفوا وترجَّلَ عن فرسه، ودنا منِّي فأهضني بقوةٍ، وضربَ على صدري، وقال لي: «قم يا محمودُ فخذْ هذا الطريقَ إلى مصرَ، فستملكها وتهزمُ التتارَ».

فعجبتُ من معرفتهِ اسمي، وأردتُ أن أسأله من هو، فما أمهلني أن ركبَ جواده، فانطلقَ به، فصحَّتْ بأعلى صوتٍ: «من أنت؟». فالتفتُ أحدُ أصحابه وهم مُنطلقون في أثره: «ويلك! هذا محمدٌ رسولُ الله ﷺ». وانتبهتُ من نومي، وأنا أحسُّ بردَ أناملي في صدري، فما ملكتُ نفسي من الفرحِ أن انطلقتُ إلى سيدي فوجدته يتوضأ، فلم أصبر حتى يفرغ من وضوئه فخرجتُ إلى (الحاجِ على الفرائسِ)، فوجدته على فراشه، فأيقظته وقلتُ له: «رأيتُ رؤيا عظيمةً، رأيتُ النَّبِيَّ ﷺ» فهبَّ من فراشه وأقبلَ عليَّ فرحاً يريدُ أن أقصَّها عليه، فقلتُ له: «لا أقصُّها إلا على سيدي أولاً». فقال لي: «أتبعكُ إليه فأسمعها معه». فانطلقَ معي،

(٣١) جمعة: مجتمع شعر الرأس «الناصية»

الجمع: جُمَّمٌ وجَمَامٌ.

(٢٨) نابني: أصابني.

(٢٩) برية قفراء: صحراء خالية.

(٣٠) كوكبة: مجموعة.

(٢٥) ألبتة: أبداً وقطعاً.

(٢٦) حدَّقها: أجادها وأتقنها.

(٢٧) ينفح: ينتشر ويفوح.

فوجدنا السيد ابن الزعيم حين خرج من المغتسل؛ فلما رأنا تعجبنا من إقبالنا معاً، فقال له (الحاج علي): «إنه رأى النبي ﷺ يا سيدي ويريد أن يقصها عليك» فابتسم سيدي، وأقبل علي فحدثته بما رأيت في منامي، وفرح وبشرتي وأمرني بالاعتسال فاغتسلت وطيبني بيده وقال لي: «أذهب إلى مولانا الشيخ فاقصص رؤياك عليه، وانظر ماذا يقول لك في تعبيرها».

١٤ رُؤيا عظيمة وبشارة كبيرة:

فسكت الشيخ هنيهة متعجباً من الرؤيا، ثم قال: «ما زلت تفكر في الملك وهزيمة التتار يا (قطن) حتى أتاك النبي ﷺ فبشرك بهما. إنها لرؤيا عظيمة كما ذكرت، فإن تكن صدقاً فستملك مصر حقا وتهزم التتار، فإن النبي ﷺ يقول: «من رآني فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي».

فجعل الشاب يقبل رأس الشيخ ويلثم^(٣٢) يده ظهراً لبطن، وهو يقول: «بشرك الله يا سيدي». فقال له الشيخ مُمازحاً: «ما بشارتي إذا تحققت رؤياك وصرت ملكاً على مصر؟» فسكت (قطن) قليلاً وهو يبتسم كأنه يعد في نفسه جواباً للشيخ ثم قال وقد لمعت عيناه: «لو كنت ياسيدي الشيخ تحب الدنيا لسقت إليك بدر^(٣٣) الذهب والفضة، ولكني سأرجع إلى رأيك في كل شئون ملكي، فأقيم الشرع، وأنشر العدل، وأحبي ما أمات الناس من سنة الجهاد، فهذه بشارتك عندي».

١٥ دُعاء (الشيخ العز) بتحقيق رؤيا (قطن) وأن يجمع شمله بـ(جلنار):

فرح الشيخ من حسن جوابه، واستنار وجهه كأنه القمر، وقال: «إنك لصادق القول وصالح العمل يا (قطن)، وإنك لجدير بأن تكون ملك المسلمين». ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهم حقق رؤيا عبدك فطر كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك (يوسف الصديق) عليه وعلى آبائه السلام...». ولم يكذ الشيخ يؤمن على دعائه حتى رأى البكاء في عيني (قطن)، فظنه أول الأمر يبكي من الفرح، ولكنه لم يلبث أن انخرط^(٣٤) في البكاء ورأه يزفر بشدة تكاد تشق صدره وتقضم أضلاعه، فدنا الشيخ منه وسأله عما يبكيه، فأجابه الشاب بصوت يخالطه النشيج^(٣٥): «لقد علمت يا مولاي الشيخ أن الله سيسئجيب دعاءك لي، فذكرت حبيبي (جلنار)، وعز علي أني لن أراها أبداً، فوددت لودعوت الله أيضاً أن ألقاها فأتزوج بها». فرق له الشيخ، وسنحت على ثغره بسمه خفيفة، ولم يقل شيئاً، بل عاد فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إن في صدر هذا العبد الصالح مضغة^(٣٦) تهفو إلى ألفها في غير معصية لك، فأتمم عليه نعمتك، واجمع شمله بأمتك التي يحبها على سنة نبيك محمد ﷺ». وما أتم الشيخ دعوته حتى جف دمع الشاب، وسكن لاجع^(٣٧) قلبه، وطفق يتميم: «الحمد لله، سألقاها، سأزوجها». فقال الشيخ: «إن شاء الله».

(٣٢) يلثم: يقبل.

(٣٤) انخرط: تمادى في البكاء واشتد.

(٣٦) مضغة: قطعة، المراد: القلب.

(٣٥) النشيج: الصوت المتردد في الصدر.

(٣٣) بدر: أكياس، المفرد: بكرة.